دور علماء السُّنّة ومساهماتهم في الدولة الفاطمية بمصر (468-556هـ)/ (1075-1160م)

*لؤي إبراهيم بواعنة**

ملخص

تتناول هذه الدراسة فئة غاية في الأهمية والتأثير في المجتمع المصري إبان حكم الدولة الفاطمية، ألا وهي علماء السُّنّة، التي كان لها إسهاماتها المميزة والمتعددة، وأدوارها المؤثرة في تلك الفترة التي حُدّدت منذ عام 468هـ/ 1075م؛ أي بتولي الأمير بدر الجمالي الوزارة بمصر وإمساكه بزمام الأمور وتضييقه على علماء الشريعة واللغة والأدب والنحو والعلوم الأخرى، وامتدّت الدراسة حتى عام 556هـ/ 1160م؛ أي عهد الوزير طلائع بن رزيك الذي مثّل نموذجًا للانفتاح عليهم حيث أكرمهم وأغدق عليهم، فازدهر دورهم في حينها. فكان لا بد من ضرورة البحث في حقيقة هذا الدور والوقوف على تلك الإسهامات في تلك الفترة لأهداف كثيرة، منها: التحقق من الحكم على طبيعة تلك الدولة من خلال علاقاتها بنخب أهل السُّنّة من هؤلاء العلماء، ومعرفة مشاركاتهم المتنوعة في مختلف نشاطات الدولة، وإن خالفت مذهبها.

الكلمات الدالة : علماء السُّنّة، دور الفاطميين، مصر.

تمهيد: أوضاع الدولة الفاطمية وتحوّلاتها عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي

كان للأحداث التي تعرّضت لها مصرُ في أثناء حكم المستنصر بالله، كالكوارث والمجاعات، أثرٌ سلبيًّا في المجتمع المصري بعامّة؛ إذ أسهمت في إحداث فتن واضطرابات قادت إلى إضعاف هيبة الخلافة، ممّا دعا المستنصر بالله إلى الاستنجاد بالأمير بدر الجمالي(1)، وذلك عام 466هـ/ 1073م(2). كما شهدت الفترة التي أعقبت فترة خلافة المستنصر

* كليّة عمّان الجامعيّة للعلوم الماليّة والإداريّة، جامعة البلقاء التطبيقيّة، الأردن. تاريخ استلام البحث 2018/5/9، تاريخ النشر 2019/8/25.

(1) هو أمير الجيوش بدر الجمالي، أبو النجم، وزير مصر زمن المستنصر، صاحب أمرها، وَلِيَ الوزارة بمصر عام 468هـ/ 1075م، وتوفي عام 488هـ/ 1094م: انظر: ابن الصيرفي،، أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب (تبعد 550هـ/ 1155م)، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبدالله مخلص، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1933م، ص55-57، وسيشار له لاحقًا، ابن الصيرفي، الإشارة، ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب (ت677هـ/ 1278م)، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، ص52-53، وسيشار له لاحقًا، ابن ميسر، المنتقى، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت852هـ/ 1448م)، رفع الإصر عن قضاة مصر، 2ج، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، 1988، ج1، ص91-95، وسيشار له لاحقًا، العسقلاني، رفع الإصر، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/ 1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 10ج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة، مصر، ج5، ص101، 120، 140، وسيشار له لاحقًا، ابن تغري بردي، النجوم.

(2) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد، 3ج، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1973، ج2، ص224، 240، 296-

© 2019م عمادة البحث العلمي/الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

بالله الفاطمي ووفاته عام 487هـ/ 1094م، التي غطت جزءًا كبيرًا من فترة الدراسة، تحوّلات مهمّةً ألقت بظلالها على تلك الفترة وأحداثها، التي تمثلت في ضعف مؤسسة الخلافة وبروز وزراء ينتميون إلى المؤسسة العسكرية، وما ورافق ذلك من تحوّلات اقتصادية واجتماعية وفكرية تمثلت في تراجع موازين القوى لصالح أهل السُّنّة، ممّا يفسر بروز دور علماء أهل السُّنّة في الدولة الفاطمية(3).

كما برزت بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي أحداثٌ سياسية خطيرة عصفت بالدولة، كقيام الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي(4) بأخذ البيعة للابن الأصغر للمستنصر ولقبه بالمستعلي وأبعد أخاه الأكبر نزارًا الذي كان يحظى بعهد بالخلافة من والده، واتّخذ الأفضل سياسة متشدّدة ضدّ معارضي بيعته، ممّا أسهم في إحداث انقسام كبير داخل الدولة الفاطمية، كما أحدثت تلك السياسة انشقاقًا كبيرًا في صفوف الفاطميين فانشقّ عدد من الدُّعاة، في حين كان الآخرون مؤيدين للمستعلي، وكان لهذا الانقسام السياسي والمذهبي داخل الدولة الفاطمية وخارجها أثر واضح في أضعافها وعجزها عن مواجهة التحديات، يضاف إلى ذلك كلّه ما كان من خلفاء الدولة الفاطمية الذين كانوا صغارًا في السِّنّ، ممّا أضعف دور الخلفاء فاستبدّ الوزراء بالحكم(5).

وكان للوزراء في هذه الفترة دورٌ كبير؛ فقد تدخلوا في شؤون المذهب ولم يتمسكوا بنصوصه فأهملوا النصّ في الإمامة، ولم يراعوا التعاليم الإسماعيلية في تولية الخلفاء، بل أصبح اختيار الخليفة بيد الوزير. وعمل بعضهم على إحياء المذهب السني وحاول بعضهم الآخر إحلال المذهب الإمامي وإضعاف المذهب الإسماعيليّ، وبذلك ضعفت الدعوة الفاطمية وانصرف الناس عنها فأصابها الوهن والانحلال، وزال سلطان الفاطميين من كثير من البلاد، كالعراق والشام والمغرب، ولم يبقَ لهم سوى بعض النفوذ الروحي في الحجاز واليمن وأخذ المذهب في الاضمحلال في مصر(6).

نشاطات العلماء العلمية وخدماتهم الوظيفية للدولة الفاطمية

زخر العصر الفاطمي بمصر بالعديد من علماء السُّنّة الذين تراوحت أعمالهم بين التدريس والتأليف والوظائف العامّة وخدمة الدولة، فقد برز في هذا العصر علماء في مختلف العلوم، التي تنوعت بين الشريعة وعلوم اللغة والأدب والنحو والفلك والفلسفة والرياضيات وغيرها. وستحاول هذه الدراسة التركيز على علماء الشرع واللغة والنحو والأدب لارتباط

297، 300، وسيشار له لاحقًا، المقريزي، اتعاظ، ابن ميسر، المنتقى، ص32-39

(3) Canard، M. Fatimids، Encyclopaedia Of Islam، New Edition، Leiden، London، 1979. V2، p857.

(4) هو أبو القاسم شاهنشاه الوزير الملك الافضل بن السيد الأجل أمير الجيوش بدر الدين الجمالي المستظهري، تولّى الوزارة زمن المستنصر بالله عام 487هـ/ 1094م، كان حسنَ السيرة، عادلاً، توفي عام 515هـ / 1121م قتلا، تولّى الوزارة ثمانية وعشرين عامًا. انظر: الصيرفي، الإشارة، ص57-59، والعماد الأصفهاني عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد (ت597هـ/ 1201م)، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق عمر تدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002، ص324، وسيشار له لاحقا، الأصفهاني، البستان الجامع، وابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ، 12مج، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1966م، مج11، ص589-590، وسيشار له لاحقا، ابن الأثير، الكامل، ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص153.

(5) ابن ميسر، المنتقى، ص59-60، 71، 97، المقريزي، اتعاظ، ج3، ص11-15، 27.

(6) Canard، M. Fatimids، Encyclopaedia of Islam، New Edition، Leiden، London، 1979. V2، p858.

أصحابها ببعض الوظائف والمناصب المهمّة في الدولة، وكذلك غيرها من العلوم الأخرى كالفلك.

وتعدّ العلوم الشرعية من أهم علوم الدولة الإسلامية وأكثرها ازدهارًا في هذه الفترة لأسباب عديدة فرضتها ظروف العصر كالاحتلال الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي ومحاولة إحياء الفكر السُني في مواجهة الفكر الإسماعيلي[7]، وتميّز هذا العصر بازدهار تلك العلوم الشرعية التي تركزت في علم القراءات والتفسير وعلوم الحديث والفقة بمذاهبه الأربعة، وقد برع في تلك العلوم الكثير من العلماء، فمنهم من نشط بالتأليف، أمثال: محمد بن بركات السعيدي النحوي اللغوي الصوفي[8]، الذي عُرف بشيخ مصر في النحو واللغة، فقد كانت له كتب عديدة، منها "خطط مصر" و"الإيجاز في معرفة ما في القرآن من منسوخ وناسخ"، الذي أهداه للوزير الملك الأفضل ابن أمير الجيوش.

أمّا في مجال الفقه فبرز منهم الفقيه الشافعي أبو المعالي المخزومي القرشي الأرسوفي (ت550هـ/ 1155م)[9]، الذي صنّف كتابًا شهيرًا في الفقه بعنوان "الذخيرة في الفقه" أو "الذخائر"[10]. وهذا يعني على نحو واضح أنّ علماء السُنّة بمذاهبهم المختلفة نالوا خلال هذه الفترة من حكم الدولة الفاطمية الحرية الكافية لتأليف مصنّفاتهم الفكرية والدينية والشرعية والثقافية.

وبلغ من العلاقة الوطيدة بين الفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي (ت520هـ/ 1126م)[11] والوزير الفاطمي المأمون المعروف بابن بالبطائحي[12] أن أهداه الطرطوشي كتاب سراج الملوك الذي كان قد صنّفه للأفضل شاهنشاه بن أمير

---

(7) بدوي، عبدالمجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، ط2، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ص212، وسيشار له لاحقا، بدوي، التاريخ السياسي.

(8) كان راوية للحديث، روى عنه السلفي، وتوفي عام 520هـ/ 1126م. انظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، تاريخ المقريزي الكبير المسمى المقفى الكبير، 6 أجزاء، تحقيق محمد عثمان، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2010، ج5، ص141-144، وسيشار له لاحقا، المقريزي، المقفى.

(9) مجلي بن جميع بن نجا المخزومي الأرسوفي، المصري، وكان من أعيان الفقهاء والمشار إليهم في وقته، كان فقيهًا شافعيًّا. انظر: ابن ميسرالمنتقى، ص152-153، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت681هـ/ 1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4ج، تقديم محمد المرعشلي، أعدّ فهارسها رياض عبد الهادي، ط1، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1997، ج2، ص308-309، وسيشار له لاحقا، ابن خلكان، وفيات، المقريزي، اتعاظ، ج3، ص228.

(10)ابن ميسر، المنتقى، ص152-153، ابن خلكان، وفيات، ج2، ص308.

(11) أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري المعروف بابن أبي رندقة، وُلد بطرطوشة بالأندلس، كان فقيهًا مالكيًّا، رحل لثغر الإسكندرية عام 476هـ/ 1083م وبقي به حتى وفاته، توفي عام 520هـ/ 1126م. انظر: ابن خلّكان، وفيات، مج2، ص355-357، ابن فرحون، إبراهيم بن نور الدين المالكي، (ت799هـ/ 1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، 2ج، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د.ت، ج2، ص244 – 248، وسيشار له لاحقا، ابن فرحون، الديباج، والمقريزي، المقفى، ج6، ص442-448.

(12) أبو عبدالله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن البطائحي، تولّى الوزارة عام 515هـ/ 1121م، ولقّب بالأجل المأمون تاج الخلافة، كان إماميًّا عزله الخليفة الآمر بأحكام الله ثم قتله عام 522هـ/ 1128م. انظر ابن الصيرفي، الإشارة، 62-64، ابن المأمون، جمال الملك موسى بن المأمون بن البطائحي (ت588هـ/ 1192م)، السيرة المأمونية أو أخبار مصر 501-519هـ، تحقيق أيمن فؤاد السيد، دار الكتب والوثائق القومية، مركز

الجيوش الذي قتل قبل إتمامه[13]، وهو من الكتب الممتعة في السياسة والإدارة[14]. وخالف ابن خلكان غيره من المؤرّخين بقوله إنّ الكتاب الذي صنّفه الطرطوشي له، وأهداه إيّاه، هو "سراج الهدى"[15]، وليس سراج الملوك، وقد يكون الخلاف في التسمية ليس أكثر، وإن كان الأول، وهو سراج الملوك، أكثرَ شيوعًا في التسمية.

كما ازدان هذا العصر بالكُتّاب في حضرة الخلفاء والوزراء، الذين كان لهم مساهمة كبيرة في كتابة رسائل الدولة، كما كانت لهم مصنفاتهم المهمّة، وكان في مقدّمتهم الكاتب علي بن منجب الشهير بابن الصيرفي (ت بعد550هـ/ 1155)[16]، الذي أهدى كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة إلى الوزير المأمون[17]، وهذا يؤكّد أهمية المصنفات عند حكّام تلك الفترة من الفاطميين وإن كان مؤلّفوها من علماء السُنّة. كما برز في هذه الفترة القاضي الجلّيس بن الجباب (ت561هـ/ 1165م)[18]، الذي تولّى ديوان الإنشاء[19] للخليفة الفائز[20].

وبرز بمصر الفقيه والمحدّث أبو الحسن الموصلي (ت492هـ/ 1099م) المعروف بالخلعي[21]، الذي وُصف بأنه مسند الديار المصرية في وقته، حتى إنّ أحد الحفاظ جمع له عشرين جزءًا سمّاها الخلعيات[22].

تحقيق التراث، مصر، 2014، ص3، وسيشار له لاحقا، ابن المأمون، السيرة المأمونية، ابن ميسر، المنتقى، ص88-99.

(13) ابن فرحون، الديباج، ج2، ص246، وابن الصيرفي، الإشارة، ص4 (مقدّمة المحقق)، والمقريزي، المقفى، ج6، ص443.

(14) ابن الصيرفي، الإشارة، ص4 (مقدّمة المحقق).

(15) وعن عهد المأمون الذي كانت فيه الكتب صناعة رائجة حتى وصف عهده بدولة العلم والأدب، انظر ابن الصيرفي، الإشارة، ص11 (مقدّمة المحقق)، وابن خلكان، وفيات، ج2، ص356.

(16) أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان ابن الصيرفي المصري، اشتهر بالبلاغة والشعر والخط، كان أبوه صيرفيًّا وجده كاتبًا وأشتهر هو بالكتابة، كان أحد كتاب المصريين وبلغائهم، له كثير من المصنفات، من أشهرها الإشارة في من نال رتب الوزارة، وكتاب عمدة المحادثة، وكتاب ردّ المظالم، وكتاب استنزال الرحمة وغيرها، جعل ياقوت تاريخ وفاته بعد 550هـ/ 1155م. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت626هـ/ 1228م)، معجم الأدباء، 20 جزءًا، دار إحياء التراث، بيروت لبنان، د.ت، ج15، ص79-81، وسيشار له لاحقا، ياقوت، معجم الأدباء، والصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/ 1363م)، الوافي بالوفيات، 24ج، تحقيق أبو عبدالله جلال الأسيوطي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، مج 17، ص479-483، وسيشار له لاحقا، الصفدي، الوافي، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص185.

(17) انظر مقدّمة كتابه ومدحه للمأمون، ابن الصيرفي، الإشارة (مقدّمة المحقق)، ص18-19.

(18) هو عبدالعزيز بن الحسين بن الجبّاب (وقيل الحبّاب) السعدي التميمي الصقلي الأصل المعروف بالقاضي الجلّيس أبو المعالي، عُرف بالجبّاب لجلوس جدّه في السوق، وسمّي بالجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم والأدب، فهم يسمّون مؤدبهم بالجليس. تولّى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق بن الخلال. انظر: الصفدي، الوافي، مج 15، ص211-213.

(19) هو الديوان الذي يشرف على الكتابة والكتاب في الدولة A. S. Bazmee،Ansaree، Diwan،Encyclopaedia Of Islam ، New Edition، Leiden، London، V2. 1979، p329.

(20) الصفدي، الوافي، مج 15، ص211.

(21) علي بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضي الموصلي الأصل، المصري الدار، كان فقيهًا شافعيًّا وعُرف بالخلعي، ولد بمصر وسمع الحديث ورواه، وإليه يُنسب مسجد الخلعي بالقرافة التي بها قبر الشافعي، والخلعي نسبة إلى الخلع لبيعه الخلع لملوك مصر فاشتهر بذلك. ابن ميسر، المنتقي، ص67، وابن خلكان، وفيات، ج3، ص151-152، وابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص164.

(22) ابن ميسر، المنتقي، ص67، ابن خلكان، وفيات، ج3، ص151-152، ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص164.

أمّا في مجال القراءات فقد زخرت هذه الفترة بعدد من المقرئين برز منهم المقرىء ابن الفحام (ت516هـ/ 1122م)[23]، الذي عُدَّ من كبار شيوخ القراء بمصر، وتفرد في عصره، وأعلى ما كان يروي سند القراءات من طريقه، وقد قصده الناس بالإسكندرية من جميع النواحي لعلوّ إسناده وإتقانه، وصنّف كتاب "الجريد في القراءات السبع"، وقيل التجريد في القراءات"[24]. كما اشتهر عندهم الشيخ المقرئ أبو الحسن يحيى بن علي بن الفرج الخشّاب (ت504هـ/ 1110م)، الذي وصف بأنه عالم مصر ومقرئها[25].

كما كان لعلماء السُّنّة الذين هاجروا لمصر دور كبير في الإعلاء من شأن أهل السُّنّة بالعمل على إحياء مذهبهم من جهة وإغناء العلوم الدينية عندهم على نحوٍ عام، وتمثل ذلك بشكل واضح على يد عدد من العلماء الذين استوطنوا الإسكندرية على نحوٍ خاص، وكان لمكانتهم وعلمهم شأن كبير في الدولة ممّا استدعى قيام وزراء الدولة الفاطمية آنذاك بإنشاء مدارس لهم، فكان منهم الإمام السلفي (ت576هـ/ 1180م)[26] الذي بنى له الوزير الفاطمي العادل بن السلار عام 546هـ/ 1151م المدرسة التي عرفت بالسلفية وقيل العادلية[27]. في حين بنى الوزير رضوان بن ولخشي[28] عام 532هـ/ 1137م مدرسة أخرى بثغر الإسكندرية للفقيه أبي طاهر بن عوف[29] عُرفت بالمدرسة العوفية[30]. وهذا يعني

(23) أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي بكر عتيق بن خلف الصقلي المقرئ المجود. انظر: الصفدي، الوافي، مج 14، ص391، ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص225.

(24) الصفدي الوافي، مج 14، ص391، ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص255.

(25) ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص202.

(26) هو أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة الأصبهاني، أحد حفّاظ الحديث المكثرين، كما كان عالمًا بالنحو، جمع معجمًا لشيوخه. هو" معجم السفر"، ودخل ثغر الإسكندرية 511هـ/ 1117م واستوطنها وتوفي فيها، وقصده الناس من الأماكن البعيدة، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله. ابن خلكان، وفيات، ج1، ص60-61، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/ 1347م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 15ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ج12، ص81-87، سيشار له لاحقا، الذهبي، تاريخ الاسلام، المقريزي، المقفى، ج2، ص3-8.

(27) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص60-61، الذهبي، تاريخ، ج11، ص491-492. وقد أُنشئت هذه المدارس في الإسكندرية التي كانت تشكل مركزا مهمًّا للحركة السنية والمعارضة السياسية للفاطميين، وخصّصت لتدريس الفقه الشافعي، إلا أن نشاطها بقي محصورًا بالإسكندرية. ولمزيد من التفاصيل، انظر: سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر بن قزاوغلي التركي (ت654هـ/ 1256م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، 8ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط1، حيدر أباد الدكن، الهند، 1951، ج8، ق1 (وقائع 495-589هـ)، ص361-362، وسيشار له لاحقا، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، الشيال، جمال الدين، أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر مج11، 1957، ص12-13، البواعنة، لؤي، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي (الصليبي) للمشرق الإسلامي (490-648هـ/ 1097-1250م)، ط1، دار اليازوري، عمّان، الأردن، 2007، ص77، وسيشار له لاحقًا، البواعنة، دور العلماء.

(28) كان أيام الوزير بهرام النصراني واليًا على الغربية فاستنجد به المصريون لاستقدام النصارى، ثم أخذ الوزارة منه، ولقب بالوزير الملك الأفضل، قتل عام 542هـ/ 1147م، ابن ميسر، المنتقي، ص124، 138، المقريزي، اتعاظ، ج3، ص184.

(29) ابن خلكان، وفيات، ج1، ص60-61، ابن فرحون، الديباج، ج1، ص292.

(30) ابن ميسر، المنتقي، ص130، ابن فرحون، الديباج، ج1، ص292.

أنهم خدموا الدولة وأسهموا في إحراز نهضة تعليمية واضحة بها، وإن كانت هذه النهضة قد خدمت المذهب السُني أكثر من خدمتها للمذهب الإسماعيلي مذهب الدولة الرسمي فإنّ ما قام به وزراء الدولة من أهل السُنّة وعلماؤها لم يلقَ معارضة واضحة من الدولة والقائمين على مذهبها، وهذا يعكس ما شهدته هذه الفترة من تسامح ديني؛ إذ لم تكن هناك توجهات مذهبية واضحة إزاء تعلّم تلك العلوم.

كما ساهم كثير من علماء هذه الحِقبة بدور بارز في تخريج أئمة وفقهاء مشاهير مشهود لهم في الفقه أو الحديث والقراءات في ما بعد، وكان معظمهم ممّن استوطن بالإسكندرية ومن الذين هاجروا إليها، ومنهم: الفقيه أبو عبدالله المازري المسمّى بالأحول[31]، الذي سمع الحديث من أهل العلم ثم حدّث بها حتى أخذ عنه ذلك الإمام السلفي[32]، ومنهم الفقيه المالكي المعروف بابن عوف[33] الذي برع بالحديث وأخذ الفقه عن الإمام أبو بكر الطرطوشي[34]، والفقيه والمقرئ المالكي أبو العباس الشهير بابن حطيئة (ت561هـ/ 1165م)[35]، الذي تتلمذ على يد شيخه المقرىء أبي القاسم بن الفحام بالإسكندرية، إلّا أنه أصبح رأسًا في القراءات السبع والعربية بمصر، حتى إنّ السلفي كتب عنه. كما كان لعلمه أكبر الأثر في وقوع الاختيار عليه لتولّي القضاء زمن الحافظ لدين الله[36].

لم يقتصر دور العلماء في التدريس والتصنيف على علماء العلم الشرعي والأدب فقط بل برز أيضًا علماء في حقول مختلفة منهم في فنّ الحكمة والطب، وعلم الأوائل والمنطق، مثل أبي الصلت الأندلسي (ت529هـ/ 1134م)، الذي وصف بأنه أوحد زمانه وأفضل أقرانه، فقد كان متبحّرًا في العلوم[37]. وهذا يعني أن علماء السُنّة في مصر شاركوا مشاركة واضحة في جميع نواحي الحياة الحضارية.

ولم تقتصر مساهمات علماء السُنّة في مصر على التأليف والتدريس بل تعدّتها للمشاركة في الوظائف العامة للدولة وخاصة المهمّة منها، التي تراوحت بين الولاية والقضاء ودار الإنشاء، برز منهم: الفقيه محمد بن عبدالرحمن الحضرمي

---

(31) محمد بن المسلم، ولد بمازر، إحدى مدن جزيرة صقلية، صنف كثير من الكتب، توفي عام 530هـ/ 1135م، المقريزي، المقفي، ج6، ص345.

(32) المقريزي، المقفى، ج6، ص345.

(33) هو أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن عوف القرشي الزهري الإسكندري، كان فقيهًا مالكيًّا، وكان إمام عصره في الفقه، كما كان محدّثا كتب عنه الحافظ أبو طاهر السلفي، ورحل إليه السلطان صلاح الدين، توفي بالإسكندرية عام 581هـ/ 1185م. انظر: الذهبي، تاريخ، ج12، ص193، والمقريزي، المقفي، ج1، ص162، وابن فرحون، الديباج، ج1، ص292-294.

(34) المقريزي، المقفى، ج1، ص162.

(35)هو أحمد بن عبدالله اللخمي القرطبي الفاسي، مقرئ وناسخ، استوطن مصر، سمع الحديث، وقرأ القرآن على شيخه ابن الفحام،كتب عنه أبو طاهر السلفي، وتصدر القراءات بمصر. انظر عنه: القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف (ت646هـ/ 1248م)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، 4 أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا –بيروت، 2009،ج1، ص74، سيشار له لاحقا، ابن القفطي، إنباه الرواة، ابن خلكان، وفيات، ج1، ص94، الذهبي، تاريخ، ج11، ص664-665. المقريزي، المقفي، ج1، ص402.

(36) القفطي، إنباه الرواة،ج1، ص74، المقريزي، المقفي، ج1، ص402.

(37) هو أُميّة بن عبدالعزيز الأندلسي، سكن الإسكندرية، وألف بالسجن كتاب "الحديقة" و"رسالة في الإسطرلاب"، وله الانتصار في أصول الطب، وكتاب في المنطق، والوجيز في علم الهيئة، والأدوية المفردة، انظر وفيات، ج1، ص130-131، المقفي، ج2، ص241، الذهبي، تاريخ، ج11، ص158.

الصقلي الأصل الإسكندراني[38]، الذي ناب في الحكم بالإسكندرية عن القاضي أبي المكارم ابن الجباب[39].

كما مهر في هذه الفترة الكاتب ابن الصيرفي (تبعد 550هـ/ 1155م)، الذي عرف بتاج الرياسة، وترقى في الوظائف فعمل بداية بالكتابة في الجيش والخراج مدّة ثمّ استخدمه الوزير الملك الافضل بن بدر الجمالي في ديوان المكاتبات[40]، ثمّ انتقل لديوان الإنشاء[41].

كما تولّى أبو المعالي مجلي الأرسوفي القضاء بمصر في سُنّة 547هـ/ 1152م بتفويض من العادل أبي الحسن بن علي بن السلار[42]؛ إذ كان صاحب الأمر في ذلك الزمان ومكث فيها سنتين حتى عام 549هـ/ 1154م أيام الخليفة الفائز بنصر الله[43] ثم صرف عنه[44]، كما تولّى الفقيه أبو العباس أحمد بن الحطيئة منصب قاضي القضاء وجاء اختياره له بعد عزل القاضي أبو المكارم أحمد بن عبدالرحمن بن أبي عقيل وبقاء المنصب شاغرًا لمدة ثلاثة أشهر؛ حيث اشترط ألّا يحكم إلا بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك ثمّ ولّوا غيره[45]. كما عيّن المقرىء والنحوي أبو الحجّاج جلال الملك تاج الأحكام (ت521هـ/ 1127م)[46] قاضيًا لقضاء الغربية ثم قاضيًا للقضاء[47].

كما كان من محاسن ما فعله الوزير أبو شجاع رزيك ابن الملك الصالح (ت558هـ/ 1161م[48]، أنه اختار الكاتب عبدالرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل [49] للعمل معه، حينما أمر والي الإسكندرية بحمله إليه واستخدامه بين

---

(38) ولد بالإسكندرية وبرع بالفقه، سمع بالمشرق والمغرب، كان مالكيًّا، وهو من بيت حديث، وتوفي بالإسكندرية عام 579هـ/ 1183م. المقريزي، المقفى، ج5، ص377.

(39) هو القاضي الأنجب أبو المكارم المفضل بن أبي الحسن اللخمي المقدسي الأصل المصري الدار، توفي 584هـ/ 1188م، ابن خلكان، وفيات، ج2، ص139.

(40) هو الديوان الذي يشرف على مراسلات الدولة مع الأمصار ومع الدول الأجنبية Diwan، A. S. Bazmee،Ansaree ، Encyclopaedia of Islam، New Edition، Leiden، London، V2. 1979، p328.

(41) ياقوت، معجم الأدباء، ج 15، ص79-81.

(42) هو علي بن السلار المنعوت بالملك العادل، كان وزيرًا للخليفة الظافر الفاطمي، بمصر تولّى الوزارة عام 543هـ/ 1148م، توفي مقتولا عام 548هـ/ 1153م. انظر ابن خلكان، وفيات، ج2، ص198-199.

(43) هو أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل بن الحافظ بن عبدالمجيد بن محمد بن المستنصر، كان خليفة لمصر بويع بالخلافة وهو صغير السِّنّ يوم قتل والده وكان عمره سنتين وقيل خمس سنين، وعند موت الفائز بويع العاضد لدين الله محمد، توفي 555هـ/ 1155م، الذهبي، تاريخ، ج 11، ص612-613.

(44) ابن ظافر، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي (ت613هـ/ 1216م)، أخبار الدول المنقطعة، ج1، تحقيق عصام هزايمة وآخرين، ط1، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، دار الكندي، إربد، 1999، ص254-255، وسيشار له لاحقا، ابن ظافر، أخبار الدول، ابن خلكان، وفيات، ج2، ص308. في حين يشير ابن ميسر إلى أنّ الذي استقرّ مكانه بالقضاء هو القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل بن عبد الكريم. ابن ميسر، المنتقي، ص152-153.

(45) ابن ميسر، المنتقي، ص131، ابن خلكان، وفيات، ج1، ص94.

(46) هو يوسف بن أيوب بن إسماعيل المغربي الأندلسي، كان عالمًا بالنحو والقرآن، المقريزي، اتعاظ، ج3، ص119.

(47) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(48) هو العادل رزيك بن طلائع بن رزيك، قتله الوزير شاور. انظر: ابن ظافر، أخبار الدول، ص260.

(49) أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار المعروف

يديه وفي حضرته[50]، وفي ديوان الجيش[51].

كما عمل القاضي أبو الحجّاج الصويبي (ت556هـ/ 1161م)[52] أمينًا لخزانة الكتب بالقصر الفاطمي سُنّة 524هـ/ 1130م، بعد مجيئه لمصر هاربًا من القدس خوفًا من الفرنج الذين احتلّوا مدينته التي ولد بها، كما ولي قضاء منطقة "فوة" وعملها عام 547هـ/ 1152م[53].

مكانة علماء السُنّة وعلاقتهم بالبلاط الفاطمي المصري (خلفاء ووزراء)

نال علماء السُنّة مكانة رفيعة زمن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم؛ حيث أمعنوا في إكرامهم ماديًّا ومعنويًّا، فقد ذكر ابن ميسر أنه عندما استولى الوزير الملك الأفضل بن بدر الجمالي على الإسكندرية عام 488هـ/ 1093م وولّى أبا الحسن بن حديد[54] قاضيًا لها بدلا من أبي عبدالله محمد بن عمّار[55].

وكثيرًا ما كان وزراء الدولة الفاطمية حريصون على كسب ودّ العلماء، بالتقرّب منهم وزيارتهم وتلبية حوائجهم، مثلما عمل الوزير الملك الأفضل مع الشيخ وطاط بن سعد الأطفيحي[56] إذ كان دائم الزيارة له، كما أقام له بئرًا قرب منزله بالفسطاط، ومسجدا يأتي إليه كثير من الناس لكي يشفع لهم عنده، ويقضي لهم حوائجهم[57]. كما كانت مطالب العلماء

بالقاضي الفاضل مجير الدين، تولّى أبوه القضاء ببيسان فعرف بهذا الأسم، كان وزيرًا للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، برز في صناعة الإنشاء، وصفه العماد الأصفهاني بأنه رب القلم والبيان واللسان، توفي عام 596هـ/ 1199م بالقاهرة. انظر: ابن خلكان، وفيات، ج2، ص76-77. ولمزيد من التفاصيل عنه، انظر: دجاني، هادية، القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني (526-596هـ-1131-1199م)، ط2، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص338، وسيشار له لاحقا، دجاني، القاضي الفاضل.

(50) ابن خلكان، وفيات، ج 2، ص76، المقريزي، اتعاظ، ج3، ص254.

(51) هو الديوان الذي يُحصي عدد الجند Ansaree، A. S. Bazmee، Diwan، Encyclopaedia Of Islam، New Edition، Leiden، London، V2، 1979. p330.

(52) هو يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي، وصويب قبيلة من جذام، ولد بالقدس، واشتغل بالعلم بمصر، ومات بالقاهرة. انظر: المقريزي، اتعاظ، ج3، ص255.

(53) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص255. وممّن عمل بالولاية من علماء السُنة أيضًا، القاضي أبو عبدالله محمد بن الحسن الأطرابلسي المعروف بالمحنك، وكان ممّن ولي نظر الدواوين والخزائن وغيرها، وله كتاب "تاريخ خلفاء مصر "، توفي عام 549هـ/ 1154م، وكذلك أبو الحسن علي بن سليم بن البوّاب الذي كان ناظر دواوين مصر وكان عارفًا بالهندسة والمنطق والشعر، قبض عليه الملك الصالح وعلى عدد من الأمراء وأصحاب العمائم، وذلك عام 549هـ/ 1154م. انظر: ابن ميسر، المنتقى، ص153.

(54)هو أبو الحسن زيد بن الحسن بن حديد، وكان بنو حديد هؤلاء ممن حظوا عند الوزير الملك الأفضل، وكانوا من عدول الإسكندرية، ولم تُذكر وفاة أبي الحسن. انظر ابن ظافر، أخبار الدول، ص233، المقريزي، المقفى، ج6، ص85.

(55) ابن ميسر، المنتقى، ص63. ذكر المقريزي أنّ الوزير الملك الأفضل قبض على القاضي أبي عبدالله الإسكندراني والمدعو ابن عمّار واعتقله وقتله. انظر المقريزي، المقفى، ج6، ص85.

(56) لم أجد له ترجمة.

(57) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، 4ج، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج4، ص344،

وشفاعاتهم مستجابة مثلما حصل مع الطرطوشي في أثناء زيارته للوزير المأمون ابن البطائحي للقاهرة عام 516هـ/ 1122[58].

وقد بدا واضحًا أنّ سياسة إكرام العلماء نهجًا كانت تنتهجه الدولة الفاطمية على مستوى الخليفة والوزراء معهم، وبرز ذلك بما نالوه منهم من مكانة رفيعة وتقدير وعطاء، فعندما زار الفقيه أبو بكر الطرطوشي (ت520هـ/ 1126م) الوزير الفاطمي المأمون ابن البطائحي[59] عام 516هـ/ 1122م بالقاهرة بالغ في إكرامه وأنزله مجلسه، حتى قيل إنه استقبله بدار الوزارة، وجلس عند رؤيته بين يديه، وأجرى له كل يوم خمسة دنانير من مال الجوالي[60] فلم يقبل غير دينارين كانا باسمه منذ أيام الوزير الملك الأفضل[61] ثم أخذ الطرطوشي يذكر حوائجه وأصحابه التي عمل الوزير على تلبيتها ومن ضمنها إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر فكتب لابن حديد[62] بالموافقة على الموضع الذي يختاره، وأن يبالغ له في إتقانه وسرعة إنجازه، على أن تكون النفقة عليه من مال ديوانه (المأمون) دون مال الدولة[63]. وتبدو سياسة الإغداق هذه سلاحا استخدموه وبرعوا فيه لكسب مؤيديهم لدعوتهم في العالم الإسلامي التي تخالف مذهب أهل السُنّة[64].

تميّز عصر الوزير الصالح بن رزيك[65] بحالة من الانفتاح على العلماء والأدباء؛ إذ كان عصره جاذبًا لهم، ففتحت

وسيشار له لاحقًا، المقريزي، الخطط.

(58) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص89.

(59) لمزيد من التفاصيل عن الوزير المأمون ابن البطائحي، انظر: سليمان عبد خرابشة، المأمون البطائحي وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي، (515 –519هـ/ 1122–1125م)، أبحاث ودراسات في التاريخ العربي مهداة إلى ذكرى مصطفى الحياري 1936–1998، تحرير صالح الحمارنة، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان (2001)، ص165–225، وسيشار له لاحقا، خرابشة، المأمون.

(60) مصطلح أُطلق على ما يُؤخذ من أهل الذمة، وهي ضريبة مقررة على رقابهم، والاسم الأكثر شيوعًا هو الجزية، وهي واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والرهبان والمجانين. انظر: ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني (ت617هـ/ 1220م)، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، حققه وقدّم له أيمن فؤاد سيّد، دار فرانتس شتاينر شتوتغارت، ط1، 1992، ص، 92، وسيشار له لاحقا، ابن الطوير، نزهة المقلتين.

(61) المقريزي، المقفى، ج6، ص443.

(62) هو القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكناني، قاضي الإسكندرية، ولد عام 462هـ/ 1069م وتوفي بثغر رشيد عام 528هـ/ 1133م، وكانت له مدة في القضاء. وقيل إنّ عبدالمجيد بن حديد هو ابن أخي القاضي أبي الحسن زيد بن الحسن. ابن ظافر، أخبار الدول، ص233، وابن ميسر، المنتقى، ص120، والمقريزي، المقفى، ج3، ص391.

(63) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص88–92، والمقريزي، المقفى، مج6، ص446. وعن سياسة المأمون هذه نحو الطرطوشي. انظر: خالد بن عبدالرحمن القاضي، الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008، ص111، وسيشار له لاحقا، القاضي، الحياة العلمية.

(64) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص246–249، المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، مصر، القاهرة، د.ت، ص103، وسيشار له لاحقا، المناوي، الوزارة.

(65) هو أبو الغارات طلائع بن رزّيك المسمّى بالملك الصالح، كان من غلاة الإمامية مخالفًا لما عليه مذهب الخليفة العاضد، تولّى الوزارة عام 549هـ/ 1154م وقتل عام 556هـ/ 1161م، مكث بالوزارة سبع سنين وستة أشهر، وكانت سيرة وزارته من أحسن

مصر أبوابَها لهم لممارسة نشاطاتهم العلمية والأدبية، حتى أصبحت مركزًا مهمًّا للعلوم الدينية والثقافية فأجزل لهم العطاء[66]. فقد أقبل عليها الواعظ بن نجا (ت599هـ/ 1202م)[67] وهو بالشام عندما سمع بما كانت عليه مصر من سَعة في الأرزاق حتى حصل له الكثير، وقدر ما أخذه من العاضد في ثلاث سنين ما يناهز العشرين ألف دينار[68]. كما كان لعدد كبير من العلماء عند الملك الصالح بن رزيك نفس المكانة[69]. وكان أكثرهم قربًا منه الشاعر والقاضي المهذب أبو محمد المصري ابن الزبير[70]، ويبدو أن حبّ الملك الصالح للشعر فاق الجانب الثقافي حتى قيل إنه اتخذ منه وسيلة لمحاولة نشر المذهب الشيعي والحط من شأن المذاهب الأخرى[71].

وبلغ من مكانة العلماء في الدولة الفاطمية بمصر أن بنى الملك العادل بن السلار، وزير مصر مدرسة بالإسكندرية للمحدّث أبي طاهر السلفي (ت576هـ/ 1180م)[72] ووقف عليها [73]. حتى قيل في مكانة الحافظ أبي طاهر السلفي عندهم: "وكان له عند الملوك بمصر الجاه والكلمة النافذة، مع مخالفته لهم في المذهب وكان لا يبدو منه جفوة لأحد"[74].

وقد شكّل وصول الوزير الملك الأفضل بن بدر الجمالي عام 487هـ/ 1094م للوزارة بمصر مرحلة مفصلية في تاريخ العلاقة مع علماء السُّنّة في مصر، لما امتازت به سياسته معهم إذ ترك معارضتهم لأجل اعتقاداتهم جانبًا، كما نهى عن

السير، كان كريمًا شجاعًا شاعرًا. انظر الأصفهاني، البستان الجامع،، ص382-383، وابن ظافر، أخبار الدول، ص255-260، وابن خلكان، وفيات،ج1، ص437-439، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص246-249.

(66) انظر: أبو شامة، الروضتين،ج1، ص346، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص246-249.

(67) أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الملقب بزين الدين الواعظ وابن نجية الواعظ، وُلد بدمشق عام 508هـ/ 1114م ونشأ بها، كان حنبليًّا، قدم بغداد وتفقه بها وسمع الحديث، واشتغل بالتفسير والوعظ واشتهر به، ثم قدم مصر، كانتله حظوة عند صلاح الدين الأيوبي، توفي 599هـ/ 1202م. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت665هـ/ 1266م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلّق عليه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص54-55، وسيشار له لاحقا، أبو شامة، الذيل، ابن خلكان، وفيات،ج1، ص439، وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت774هـ/ 1372م)، والبداية والنهاية، 14ج، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، ومكتبة النصر، الرياض، 1966، ج13، ص35، وسيشار له لاحقا، ابن كثير، البداية.

(68) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص265.

(69) انظر المكانة التي حظي بها عنده الحسن بن علي بن عبدالله بن أبي جرادة (ت551هـ/ 1156م)، وقد سافر لمصر أيام ابن رزّيك؛ حيث قيل إنه مدحه وحظي عنده. ياقوت، معجم الأدباء، ج14، ص5-7.

(70) هو الشاعر والقاضي المهذب أبو محمد المصري، الحسن بن علي بن الزبير، من أسوان، كان كاتبًا مليح الخط فصيحًا جيّد العبارة، وكان أشعر من أخيه الرشيد؛ حيث قيل إنّ معظم شعر الصالح من عمل المهذب بن الزبير، وحصل له منه مال جمّ ولم ينفق عنده أحد مثله،. توفي عام 561هـ/ 1165م بمصر، وكان قد اتصل بصلاح الدين عند محاصرته الإسكندرية. المقريزي، اتعاظ، ج3، ص22، وأبو شامة، الروضتين، ج2، ص17-18، وياقوت، معجم الأدباء، ج 9، ص49-57، وابن خلكان، وفيات، ج1، ص89.

(71) المناوي، الوزارة، ص105.

(72) المقريزي، المقفى، ج2، ص3-8.

(73) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج12، ص84، والمقريزي، المقفى، ج2، ص7.

(74) المقريزي، المقفى، ج2، ص6.

محاولة التضييق عليهم فأعطاهم الحرية، فأذن للناس بإظهار معتقداتهم وفتح المجال للمناظرات، حتى أدت تلك السياسة لكثرة الغرباء بمصر. وتركت سياسته هذه أثرًا سلبيًّا عليه؛ لأنها ولّدت كره الإسماعيلية له؛ إذ كان الإسماعيلية يكرهونه لتضييقه على إمامهم وتركه معارضة أهل السُّنّة[75].

كما تجسّد الاحترام بين وزراء الدولة الفاطمية وعلماء السُّنّة جليًّا بحسن استقبال العلماء لهم، وتمثل ذلك واضحًا عند خروج الفقهاء والقاضي والشهود والتجار والناس كافةً لاستقبال المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبي تراب حيدرة أخي الوزير المأمون عند قدومه للإسكندرية عام 517هـ/ 1123، ومعهم المصاحف والشموع، فخيّم حينها بظاهر المدينة وعندها خرج إليه الإمام أبو بكر الطرطوشي للسلام عليه[76]. وهذا يعكس تلك العلاقة بينهما وربّما لِما كان بينهما من مودّة قديمة[77].

وبلغ من مكانة العلماء عند وزراء الدولة الفاطمية أن كانت طلباتهم مستجابة على الفور، فعندما أراد الفقيه الطرطوشي الرجوع للإسكندرية بعد زيارة للقاهرة عام 516هـ/ 1122م وقيام الوزير المأمون بن البطائحي بوداعه ذكر له أنه يريد بناء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى قاضي الإسكندرية وناظرها مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبدالمجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد، بعمارة ذلك من مال ديوان المأمون دون مال الدولة، فبنى له مسجدًا على باب البحر، ثم بنى أخو المامون سلطان الجيوش حيدرة مسجدًا آخر بالمحجّة من الثغر[78].

الجانب السلبي في التعامل مع علماء السُّنّة (الإقصاء والإساءة والمحاسبة)

وعلى الرغم من العلاقة الطيبة التي جمعت وزراء الدولة الفاطمية بمصر بعلماء السُّنّة في كثير من أحوالها فإنها لم تخلُ من بعض الهفوات والعثرات والصدامات التي أفضت للمساءلة أحيانًا ولسوء المعاملة في بعضها حتى وصل الأمر لدرجة الاعتداء عليهم وبغضهم في أحيان أُخر، وذلك نتيجة ارتكابهم بعض الأخطاء، التي كان من الممكن التغاضي عنها؛ لما كان لأولئك العلماء من مكانة عند أصحاب القرار كما حصل مع العالم أُمية بن أبي الصلت الأندلسي الأصل[79] الذي كان على علاقة طيبة مع الوزير الملك الأفضل شاهنشاه[80] إلّا أنّ ذلك لم يشفع له عنده عند وقوعه في الخطأ،

(75) ابن الأثير، الكامل، مج10، ص589-590.

(76) المصدر نفسه، ص100-101.

(77) المقريزي، المقفى، ج6، ص443.

(78) المصدر نفسه، ج6، ص446.

(79) هو أُميّة عبدالعزيز أبو الصلت الإشبيلي، من الأندلس، وكان أديبًا ومنجّمًا، كما كان عالمًا بالطب والفلسفة والفلك، وكان متبحّرًا بعلم الأوائل والمنطق والأصول، وله كتب كثيرة في هذا الجانب، منها "الوجيز في علم الهيئة"، و"الأدوية المفردة"، و"الحديقة"، و"رسالة في الإسطرلاب"، توفي عام 529هـ/ 1134م وقيل 528هـ/ 1133م. انظر: الذهبي، تاريخ، ج11، ص159، وياقوت، معجم الأدباء، ج7، ص53-55، والمقريزي، المقفى، ج2، ص240.

(80) قيل إنه ورد لمصر أيام الخليفة الأمر بأحكام الله بأحكام الله، واتصل بالوزير الملك الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، عن طريق شخص من خواصّ الوزير الملك الأفضل يعرف بمختار، ويلقب بتاج المعالي فتحسنت حال أُميّة عند الوزير الملك الأفضل فقرّبه منه وخدمه بصناعتي الطب والنجوم. انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج7، ص53-55.

فقيل إنه نفاه من مصر عام 505هـ/ 1111م، بل قيل إنه سجنه بعد أن غضب منه[81]. ويعود سبب ذلك كلّه إثر مجيء مركب للإسكندرية فيه مال للسلطان، ولكنه تعرّض للغرق في البحر، وعندها التزم أُميّة بن أبي الصلت بإخراجه، فوافق قاضي الإسكندرية المكين أبو طالب ابن حديد[82] بعد أن أخذ موافقة الوزير الملك الأفضل على ذلك، الذي بدوره اقترح عليهم عمل حبال لإخراجها وبعد أن أحضرت له فشل في إخراجها[83] فاستاء ابن حديد منه وغضب منه، وعمل على تحريض الوزير الملك الأفضل عليه فحمله للقاهرة وسجنه هناك[84] بسجن يدعى المعونة[85]، ممّا يعني أن ابن الحديد كان سببًا في اعتقاله، وهذا يعكس بشكل واضح ما كان عليه الوزير الملك الأفضل من قسوة اتجاه هؤلاء العلماء.

امتاز عصر الأمير بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر في ما يتعلق بعلاقته بالعلماء بأنه عصر توتر وعدم وفاق؛ إذ لم يكن الجمالي نصيرًا للعلماء بل على العكس من ذلك كان معاديًا لهم. وقد سجلت فترته العديد من حالات الإقصاء والإبعاد والقتل بحقّ تلك الفئة المهمّة لأسباب مختلفة قد يكون الأمر متعلقًا بطبيعته الشخصية حيث عرف عنه الشدة والقوة، فمن الممكن أنه كان لها تأثير في سياسته تلك نحوهم؛ إذ وصفه ابن تغري بردي أنه كان فاتكًا جبارًا، حتى قيل إنه قتل كثيرًا من العلماء[86]. فقد قبض عام 468هـ/ 1075م على قاضي الإسكندرية ابن المحيرق[87] وعلى جماعة من فقهائها وأعيانها وأخذ منهم أموالا عظيمة[88] دون أن توضح مصادر تلك الفترة أسباب ذلك، إلا أن الأمر قد يكون متعلقا بظروف مجيئه وحكمه للبلاد بعدما كانت تعانيه من الجوع والشدة وانعدام الأمن والانقسام والفساد، وما اقتضته تلك الفترة من صلابة وشدة مع كل أطياف المجتمع ومكوّناته[89]. وفي عهده حدثت فتنة بين أمير مكّة (صاحب مكة وأميرها) محمد بن أبي

---

(81) ابن ميسر، المنتقى، ص120، الذهبي، تاريخ، ج 11، ص159، ذكر ياقوت أنه بقي في السجن ثلاث سنين وشهرًا واحدًا، ثمّ أطلق فقصد ابن باديس في القيروان وَحَسُنَ حاله عنده. ياقوت، معجم الأدباء، ج7، ص55-77، وابن خلكان، وفيات، ج1، ص130-131.

(82) ابن ميسر، المنتقى، ص120.

(83) المقريزي، المقفى، ج2، ص240. قيل إن القاضي ابن حديد أراد جمع رجال البلدة له لجرّ المركبة من البحر فاكتفى بالقليل منهم، ولم يتمكّن من إخراجها لانقطاع الحبال؛ حيث ردت في وجوه الناس الماء، وصدورهم، ممّا شقّ ذلك على ابن حديد فأهان الإمام أبا الصلت أمام الناس، وأوغل صدر الوزير الملك الأفضل عليه. انظر: المقريزي، المقفى، ج2، ص240.

(84) ابن ميسر، المنتقى، ص120، والمقريزي، المقفى، ج2، ص240.

(85) هو سجن في القاهرة عُرف بذلك إشارة إلى كونه دارًا للشرطة في البداية؛ لأنّ المعونة والأعوان هم الشرطة، ثم اتُّخذ سجنًا Crone، P. Mauna، Encyclopaedia Of Islam، New Edition، Leiden، London، V4. 1979، p848.

(86) ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص120. وقد ذكر ابن فرحون أنه عنما جاء الطرطوشي للإسكندرية في عام 476هـ/ 1083م وجدها خالية من العلم لقيام السلطة بتعطيل ذلك؛ حيث قتل الأمير عددًا كبيرًا من علمائها لقوله "وذكر أبو الطاهر بن عوف الزهري: أن الطرطوشي كان نزوله بالإسكندرية ثم باشر قتل الأميربها علماءها، فوجد البلد عاطلا عن العلم، فأقام بها وبثّ فيها علمًا...". انظر: ابن فرحون، الديباج، ج2، ص247.

(87) لم أجد له ترجمة.

(88) ابن تغري بردي، النجوم، ص101.

(89) وقد أشار عدد من المؤرّخين إلى سياسة الأمير بدر الجمالي وبطشه فقيل إنه قتل في عهده من الخلق ما لا يحصى من أكابر المصريين وقوادهم وكتابهم ووزرائهم خلقًا كثيرًا؛ حيث صلحت البلاد وضبطت على يديه بعد أن فسدت وعمّرها بعد أن خربت بعد أن استدعاه الخليفة المستنصر. ابن ظافر، أخبار الدول، ص224، وانظر ابن ميسر، المنتقى، ص52-53.

هاشم[90] وأحد علماء السُّنّة وهو الفقيه الحطيني (ت472هـ/ 1079م)[91]، فقد اشتكاه بعض الرافضة أنه يحرض أهل السُّنّة وأنهم يستقوون به، فحجزه هو وأصحابه، ولم يلبث أيامًا ثم مات لكبر سِنّه إذ كان في الثمانين من عمره[92]. ويحاول ابن كثير أن يخرج الفقيه الحطيني من هذه الفتنة بإشارته في رواية له إلى محاولة زجّه بالفتنة المدبّرة من قبل أمراء مكّة الرافضة آنذاك، لقوله: "ضربه بعض أمراء مكّة في بعض فتن الروافض فاشتكى؛ أي توجّع، أيامًا ثمّ مات"[93]. في حين وصفه الذهبي بالشهيد لإشارته إلى أنه رزق الشهادة في وقعة وقعت لأهل السُّنّة بمكّة[94].

تعاون فقهاء السُّنّة مع السلطة السياسية

كثيرًا ما احتاج المسؤولون والقائمون على السُّلطة في الدولة الفاطمية بمصر إلى خبرات علماء السُّنّة، وربّما إلى مؤازرتهم في كثير من القضايا التي قد يحتاجون إليها، وقد برز مثل هذا الدور بوضوح في الصّراع الدائر بين أركان السُّلطة السياسية في الدولة بين الوزير رضوان بن ولخشي والخليفة الحافظ لدين الله عام 532هـ/ 1137م عندما حاول الوزير[95] خلع الخليفة الحافظ الذي تمثّل بقوله عنه: "ما هو بخليفة، ولا إمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح"، فحاول جاهدا تنفيذ ذلك من خلال سعيه غلى أخذ موافقة علماء دولته من سُنّة وشيعة آنذاك، وعمل على استشارتهم ظنًّا منه بإمكانيّة الحصول على فتوى منهم لخلعه، فجمعم، فكان من علماء الشيعة فقيه الإماميّة ابنُ أبي كامل[96]، وداعي الدعاة ابنُ سلامة[97]، ومن علماء السُّنّة الفقيه أبو الطاهر ابن عوف، وفاوضهم في خلعه، واستخلاف شخص عيّنه لهم،

(90) ذكر ابن ميسر أنه خطب للخليفة الفاطمي بمكّة والمدينة عام 468هـ/ 1075م بعد أن قطعت خمس سنوات. ابن ميسر، المنتقي، ص42.

(91) هو هياج بن عبدالله (عبيدالله) بن الحسين، خطيب شامي من قرية حطين غربي طبريا، سمع الحديث وبرع فيه، وكان أوحد زمانه زهدًا وفقهًا واجتهادًا في العبادة، زار مكّة وأقام بها وجاور الحرم حتى عُرف بفقيه الحرم، وفقيه مكّة، توفي عام 472هـ/ 1079م. انظر: ابن كثير، البداية، ج12، ص120-121، وابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص109، والذهبي، تاريخ، ج10، ص264-265، وابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت571هـ/ 1175م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، (مج1 – مج80)، تحقيق محبّ الدين ابي سعيد عمر بن عزامة العمروري، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، د.ت، مج 74 ص100-101، وسيشار له لاحقا، ابن عساكر، تاريخ.

(92) ابن تغري بردي، النجوم، ج5، ص108-109. ذكر الذهبي "أنّ بعض الروافض شكى لأمير مكّة: أنّ أهل السُّنّة ينالون منّا ويبغضونا، فأنفذ وأخذ الشيخ هياج وجماعة من أصحابه وضربهم فمات اثنان وبقي هياج أيامًا ثمّ مات". انظر: الذهبي، تاريخ، ج10، ص265.

(93) ابن كثير، البداية، ج12، ص121.

(94) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 10، ص265.

(95) أشار ابن الطوير إلى أنّ الوزير رضوان كان خفيفًا طائشًا لا يثبت، ولهذا هَمَّ بخلع الحافظ. انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص51.

(96) هبة الله بن عبدالله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، كان قاضي الإمامية ومن كبار فقهائهم، وكان أحد القضاة الأربعة الذين عيّنهم أبو علي الوزير الملك الأفضل كتبغا (ت525هـ/ 1131م). انظر: ابن ميسر، المنتقي، ص115، والمقريزي، المقفى، ج6، ص534.

(97) القاضي مكين الدولة أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري الجلجولي، كان يلقب بالموفق في الدين، تولّى الدعوة منذ

وألزم كلّا منهم أن يقول ما عنده، فكان رأي ابن عوف أنّ: "الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعًا"[98]. كما خالفه علماء الإمامية في ذلك إذ قال ابن أبي كامل: السلطان يحملني على أن أتكلّم على غير مذهبي في الإمامة ومذهبنا يقول بأنّ الإمامية لا يعتقدون حقَّ الخلافة في بني إسماعيل بن جعفر لموته في حياة أبيه، وأضاف أنه لا ينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، أمّا داعي الدعاة الإسماعيليّ، فقال: "أنا داعٍ وموئلي لهم، وما يصح لي خلعه، فإني أصير في ما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون كذّبت نفسي، فلا أقبل الآن واستخصم بذلك،...، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى نأتي به، فقابله بالسبّ وإقامته أقبح قيام"[99]. وهذا يعني أنّ الرّد لم يعجبه، فقام الفقيه النحاس[100]، وكان حاضرًا، بحمله على خلعه، وأبلغ مجلس الحافظ بذلك[101]. ويدلّ موقف الفقيه ابن عوف على أمانة في قول الحق وعدم الخوف أو التردد فيه بما يقتضيه الدين والشرع، لا ما تحكمه مصلحة السُلطة السياسية ومآربها، ممّا يعني أنّ فقهاء السُنّة كانوا على قدر المسؤولية.

كما برز دور علماء السُنّة في مصر في الدولة الفاطمية واضحًا عند الحاجة إلى الفتاوى الشرعية لبعض الأحكام الضرورية لحلّ ما استعصى عليها من مسائل مالية، أو تلك المتعلقة بتكفير الذنوب مثلاً، أو ربما تلك التي أحرجت الدولة وأسهمت في الإساءة لسمعتها وشوّهت صورتها عند العامّة، كما حدث معَ الخليفة الآمر بأحكام الله بعد أن قتل الوزير المأمون أن استأمن صاحبي ديوانه لاستخراج ما يجب من أموال الناس من زكاة، وما هو مرتّب من المكوس، وكان أحدهما مسلمًا والآخر سامري، ومعهما راهب يقال له أبو نجاح بن قنا النصراني[102]، وحلف كل منهما على كتابه ألا يتعرّضان إلا لمن يجب لبيت المال عليه حق، ولكنهما اشتطا على الناس وتأذى بسببهما جماعة دون علم الآمر بأحكام الله، وعندما علم طلبَهم وقتلَ الراهب، ولكنّ الناس استمروا في الحديث بالأمر حتى استحيا الخليفة من الناس ولغطهم به، ولكنه كره أن يُستفتي فقهاء دولته على مذهبه في ما يكفر عنه ذلك الذنب إن كان يتعلّق بذمّته منه شيء؛ لأنه إمام والإمام عندهم معصوم، فأرسل وراء الفقيه سلطان بن رشا[103]، وفاوضه في الأمر عن طريق من يثق به، فرد عليه بقوله: "يردّ ما صار إليه من الأموال إلى أربابها"، وعندما تعذّر بعدم معرفته والقدرة على ذلك أشار عليه أن يعتق ويتصدق ولا يتأثر بذلك، ثم أشار عليه بالصوم فإنه عبادة شاقة، والصوم الذي وصفه رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ليس صوم

534هـ/ 1139م إلى عام 543هـ/ 1148م، فوّض إليه الحافظ لدين الله القضاء عندما عزل ابنَ الأزرق عام 534هـ/ 1139م، وتوفي عام 546هـ/ 1151م. انظر: المقريزي، اتعاظ، ج3، ص173-174، والعسقلاني، رفع الأصر عن قضاة مصر، ج1، ص84-85.

(98) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص52، والمقريزي، اتعاظ، مج3، ص166.

(99) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص52، والمقريزي، اتعاظ، مج3، ص166.

(100) ابن النّحاس محمد بن نصر بن الحسين، المقريء المعروف بالفقيه النحاس، إمام الجامع العتيق بمصر، حدّث بكتاب الشهاب للقضاعي في عام 485هـ/ 1092م. المقريزي، المقفى، ج6، ص395.

(101) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص52، والمقريزي، اتعاظ، مج3، ص166-167.

(102) بدأ الراهب بمصادرة الناس في مصر في شوّال من عام 520هـ/ 1126م، ثم أمر لخليفة الآمر بأحكام الله بقتله فقتله الأمير مقداد والي مصر. ابن ميسر، المنتقي، ص105، 107، 109.

(103) الفقيه أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي المعروف بابن رشا المقدسي، وُلد في القدس عام 442هـ/ 1050م، وهو فقيه شافعي، وشيخ للفقيه المشهور مجلي بن جميع صاحب كتاب الذخيرة، كان أفقه الفقهاء بمصر في وقته، وكان من الفقهاء العدول، توفي عام 535هـ/ 1140م. ابن ميسر، المنتقى، ص133،114، وابن الطوير، نزهة المقلتين، ص23.

الدهر، بل صوم داود النبي، وعندما تعذّر عن صوم داود، الذي يصوم يومًا ويفطر يومًا، أشار عليه أن يصوم الثلاثة الشهور: رجب وشعبان ورمضان، ففعل ذلك(104).

لا يمكن تحميل حادثة استعانة الخليفة الآمر بأحكام الله بالفقيه السُنّي ابن رشا المقدسي أكثر ممّا تحتمل، والذهاب في تفسيرها بعيدًا؛ فعلى الأرجح أن تلك الاستعانة به تمّت سرًّا، والسبب وراء ذلك أنّ الخليفة لا يريد استفتاء فقهاء الإسماعيلية؛ لأنّ استفتاءهم لا يجوز عنده؛ لما يعتقدونه بعصمة الإمام وأنه يُوحى إليه. وهذا ما ذهب اليه أحد الباحثين حين رأى أنّ الخليفة لم يستفت فقهاء الإسماعيلية؛ لأنه الإمام بالنسبة إليهم وهو أحد مصادر التشريع عند الإسماعيلية، وربما كان هذا الاستفتاء لعدم وجود فقهاء إسماعيليين خلال حِقبة الدراسة، أمثال القاضي النعمان والوزير ابن كِلّس(105).

وتكاد تكون الحالات التي قدّم فيها علماء السُنّة فتاوى مؤيّدة للسلطان استثنائية ونادرة، ومنها تللك الحادثة التي استفتى فيها الوزير عبّاس القاضي الفقية مجلي وداعي الدعاة عندما أعلمهما أنه صحّ عنده أنّ إخوة الخليفة الظافر هم الذين قتلوه، فأفتى الجماعة بقتلهم، فقتلوا بين يديه(106).

كما قُدّر لبعض علماء السُنّة بالدولة الفاطمية في مصر في هذه المدّة أن يؤدّوا أدوارًا بارزة، ومنهم الشاعر والفقيه الشافعي عمارة اليمني(107)، الذي قُدّر له بعد مجيئه لأرض مصر من الحجاز أن يؤدّيَ دورًا مهمًّا؛ فقد زار مصر حاملاً رسالة من أمير الحرمين قاسم بن فليتة(108)عام 550هـ/ 1156م لرجال الحكم في الدولة الفاطمية بما فيهم الخليفة والوزير، فاستقبله الخليفة الفائز ابن الظافر والوزير الصالح ابن رزّيك أحسن استقبال؛ إذ كان استقباله له بقاعة الذهب من القصر يوم السلام حافلا(109)، كما حظي بمقابلة الأمراء، وأفيضت عليه خلع الخليفة والمنح حتى منحه الملك الصالح خمسمائة دينار، وأخذ يستحضره للمجالسة حتى أصبح من خاصّته(110). كان الشاعر عمارة اليمنيّ متشيّعًا وموالِيًا للفاطميين بالرغم من انتمائه المذهبي السُني، وهذا يندرج تحت مفهوم التشيّع السياسيّ لتحقيق تطلعاته ومآربه السياسية وطموحه لتولّي

(104) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص20-23، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص127.

(105) القاضي، الحياة العلميّة، ص255.

(106) ابن ميسر، المنتقى، ص148.

(107) هو أبو محمد نجم الدين اليمني عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي من قحطان، كان فقيهًا شافعيًّا، وشاعرًا، له مصنّف في الفرائض وكتاب الوزراء الفاطميين، ولكنه كان يُنسب إلى موالاة الفاطميين، وله فيهم وفي وزرائهم مدائح، وأقلّ ما ينسب إلى الرفض، اتهم بالزندقة والكفر المحض، وسبب قتله تآمره مع جماعة من الفاطميين لإعادة الدولة، فأفتى الفقهاء بقتله عام 569هـ/ 1174م. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج2، ص195-200، والذهبي، تاريخ، ج12، ص274-275.

(108) قاسم بن هاشم بن فليته بن قاسم ابن أبي هاشم العلوي الحسني صاحب مكّة، وكان ظالمًا جبّارًا، صادر المجاورين وأهل مكّة، توفي عام 556هـ/ 1161م. الذهبي، تاريخ، ج 11، ص628.

(109) كانت هذه هي الزيارة الأولى التي يقوم بها عمارة اليمني لمصر، وقد تبعها زيارة ثانية في العام الذي يليه 551هـ/ 1157م للتوسّط لدى الملك الصالح عمّا ارتكبه أمير مكّة وجنده بحقّ الحُجّاج المصريين وأهل الشام من أخذ أموالهم بمكّة. عمارة اليمني، نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني (ت569هـ/ 1174م)، النكت العصرية في أخبار الوزراة المصرية، عُني بتصحيحه هرتويغ درنبرغ، طبع في مدينة شالون مطابع مرسو عام 1897م، ص43، وسيشار له لاحقا: عمارة، النكت العصرية، المناوي، الوزارة، ص212.

(110)عمارة، النكت العصرية، ص32-35، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص225-228. وعن هذه المَهَمّة والاستقرار بمصر؛ حيث أصبح من جملة خُدّام الدولة، انظر: ابن ميسر، المنتقى، ص145.

المناصب في الدولة الفاطمية، ويدلّ هذا على نحوٍ واضح على ما كان يحظى به علماء السُنّة من الاحترام والتقدير البالغين في قصور الخلافة الفاطمية وعند وزرائها حتى الشيعة منهم، كما ينمّ عن أمر غاية في الأهمية، وهو ما كانت عليه طبيعة الدولة الفاطمية من حيث علاقاتُها وأساس نظامها السياسيّ؛ إذ لم تكن دولة مذهبية منغلقة على نفسها، وفي تعاملاتها مع رعاياها وعلاقاتها مع جيرانها، بل على العكس من ذلك فقد كانت مدركة لمصالحها مع جيرانها وعمقها الإسلامي فتفاعلت مع ذلك بكل حكمة ومسؤولية مقدّرة أنها دولة شيعية المذهب لكنها تعيش في محيط سُني، وأنه لا بدّ لها من التعاون مع علماء السُنّة في كثير من أطوارها، والاعتراف بأهميتهم وقيمتهم في بناء الدولة وتطوّرها واستمرارها في جميع مناحي حياتها، وخاصّة الاجتماعية والثقافية وغيرها.

وتكرّرت مسألة تكليف علماء السُنّة بمهامّ سياسية لخدمة مصالح الدولة الفاطمية في الخارج، ولم تكن المَهَمّة التي كُلِّفَها الفقيه عمارة اليمني، التي أُشيرَ إليها سابقًا، هي الحادثة الوحيدة، بل جرى أن سَيّر الخليفة الحافظ عام 539هـ/ 1144م الرشيدَ أبا الحسين بن الزبير[111] رسولاً لليمن بسجل (رسالة) يقرؤها عليهم[112].

لقد كان قاضي القضاة طَوال العصر الفاطمي يُختار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويشترط عليه ألا يحكم إلا بمذهب الدولة، وإن اختيرَ فقيهًا شافعيًّا أو من أحد مذاهب السُنّة الأربعة المعروفة اشتُرط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعي أو المالكي[113] كما حدث مع أبي العباس بن الحطيئة واشترط عليه[114]. ويمكن إدراج هذا الفعل تحت باب رفض التعاطي مع مذهب الفاطميين الإسماعيلي، وخاصّة في الجانب الفقهي والقضائي. وفي هذا تقوية للمذهب السُني.

والاستثناء الوحيد الذي حدث في تلك المدّة أن تولّي القضاء لم يقتصر على قضاة الإسماعيلية، وهذا الذي حدث عندما تولّى الوزارة أبو علي أحمد بن الوزير الملك الأفضل كتيفا (ت525هـ/ 1130م)[115]؛ فقد رتّب في الحكم أربعة

(111) القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري، كان كاتبًا وفقيهًا ونحويًّا لغويًّا ومؤرّخًا، له مصنّفات كثيرة، منها: "منية الأمّعي وبينة المدّعي"، يشتمل على علوم عديدة، وله "جنان الجنان ورياض الأذهان"، واشمل على شعراء مصر، وكان أوحد عصره في علم الهندسة والرياضيات وعلوم الشرعن واتصل بصلاح الدين عند محاصرته الإسكندرية، وقتل ظلمًا عام 562هـ/ 1166م، وقيل 563هـ/ 1167م. انظر: الأصفهاني، البستان الجامع، ص395، وياقوت، معجم الأدباء، ج4، ص513-66، ج9، ص58،49، وابن خلّكان، وفيات، ج1، ص89، والصفدي، الوافي بالوفيات، مج6، ص42-44.

(112) ياقوت، معجم الأدباء، ج4، ص55، وابن ميسر، المنتقى، ص35، والصفدي، الوافي بالوفيات، مج 6، ص42-45، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص179.

(113) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص71.

(114) ابن ميسر، المنتقي، ص131. صحيح أنّ الفقه الإسماعيلي هو المعتمد بالقضاء في الدولة الفاطمية، إلّا أنه حدث في العصر الفاطمي أنْ عَيَّنَ الفاطميون عددًا من القضاة السُنيين، إلّا أنهم أجبروهم على العمل بأحكام المذهب الأسماعيلي، فالخليفة الحاكم بأمر الله عيّن على قضاء الدولة الفاطمية عام 405هـ/ 1014م الفقيه الحنفي المصري أبا العبّاس أحمدَ بن محمد بن العوّام (ت418هـ/ 1027م)، وللتأكد من التزامه أحكامَ المذهب عيّن الحاكم بأمر الله أربعة فقهاء إسماعيلية يحضرون معه في مجلس الحكم. انظر: القاضي، الحياة العلمية، ص238.

(115) هو أبو علي أحمد بن الوزير الملك الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، تغلّب على الخليفة الحافظ وأظهر الإمامية وتمسّك بالأئمّة الاثنا عشرية، وتولّى إمرة الجيوش عام 524هـ/ 1131م، واعتقل الحافظ وقطع ذكره من الخطبة، ودعا للإمام المنتظر،

قضاة يحكم كلٌّ منهم بمذهبه ويورث بمذهبه: قاض للشافعية وقاض للمالكية وقاض للإسماعيلية وقاض للإمامية، فكان قاضي الشافعية سلطان، وقاضي المالكية اللبني[116]، وقاضي الإسماعيلية ابن الأزرق[117]، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل. ولم يُسمع بها قطّ في ما سلف كما أشار ابن ميسر[118]، وعند مقتل أبي علي كتيفا ابن الوزير الملك الأفضل انتهى العمل بهذا الإجراء الذي كان قد استنه[119]، وقد اعتبر هذا الفعل إضعافًا للمذهب الإسماعيلي في مصر[120].

كما تدلّ التقارير الاستخباراتية والإدارية التي قدّمها القاضي الرشيد بن الزبير في أيام الوزير الملك الأفضل عندما كان مشرفًا على الصعيد الأعلى عام 515هـ/ 1121م عن وضعية أهل الأملاك من ذوي النفوذ باستيلائهم على أملاك الدواوين وأراضيها التي تقع بجانب أراضيهم وضمّها إليهم، ومطالبته بمحاسبتهم وإيقاع حكم العدل المتعارف عليهم، وهذا دليل واضح على إخلاصه وتفانيه في العمل رغم كل الصعوبات التي قد تعترضه مع مثل هؤلاء المتنفذين، ودليل آخر على حاجة الدولة الفاطمية إلى مثل هؤلاء العلماء[121].

دور علماء السُّنّة في معارضة (مقاومة) الفكر الإسماعيلي للدولة الفاطمية والقائمين عليه في مصر

برز من علماء هذه المدّة من تصدّى لوزراء الدولة الفاطمية أو الدعاة منهم، كما حدث مع المقرئ والفقيه أبي العباس بن الحطيئة (ت561هـ/ 1165م) الذي كان يحظى باحترام كبير بين أهل مصر، فكان لهم فيه اعتقاد كبير لما رأوه من صلاحه، وكان مؤثّرًا فيهم، متشدّدًا في الحفاظ على دين الله عزّ وجل، فظًّا غليظًا ضدّ معارضيه في الدين، جريئًا في قول الحق وخاصّة ضدّ رموز المذهب الإسماعيلي، فبينما كان يحضر مجلس داعي الدعاة –ومع عظم سلطنته ونفوذه– فقد تصدّى له وكان سليطًا عليه بقوله له: "أحمق الناس في مسألة كذا الروافض، خالفوا الكتاب والسُّنّة وكفروا بالله"[122]. وهذا يؤكّد دفاعه عن الدين وعن مذهب أهل السُّنّة والجماعة دون خوف من القائمين على السُّلطة السياسية الفاطمية بمصر، ولم يكن سكوت داعي الدعاة إلّا خوفًا من مكانته من أهل السُّنّة واحترام أهل مصر له حتى الشيعة منهم.

وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الإسماعيلية، وكان يكثر ذمّ الآمر والبغض له وكرهه للشيعة، وتوفّي مقتولاً عام 526هـ/ 1133م، ولم يدم حكمه غيرَ وشهر وثلاثة عشر يومًا. ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص30–35، وابن ميسر، المنتقى، ص111–117.

(116) أبو عبدالله محمد بن عبد المولى اللخمي اللبني، كان فقيهًا مالكيًّا مغربي الأصل من المهدية، وكان من أعيان العدول المعروفين بمصر، وهو ثبتٌ مُتَحَرٍّ في روايته، توفي بمصر عام 594هـ/ 1198م. المقريزي، المقفى، ج5، ص439–440، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص172.

(117) أبو الفضائل فخر الأمناء هبة الله بن عبدالله الانصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق، كان يُكَنّى بأبي الفضائل الإسماعيلي، فوّض الحافظ إليه النظرَ بدار العلم والتدريس فيها مضاف إلى الحكم. انظر: المقريزي، المقفى، ج5، ص440، ج6، ص533–534.

(118) ابن الطوير، نزهة، ص71، وابن ميسر، المنتقى، ص114–115، والمقريزي، المقفى، ج5، ص439–440.

(119) المقريزي، المقفى، ج5، ص440.

(120) أيمن فؤاد سيّد، الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، 2007، ص244، وسيشار له لاحقًا، سيد، الدولة الفاطمية.

(121) ابن المأمون، السيرة المأمونية، ص46–47.

(122) الذهبي، تاريخ، ج11، ص664.

وممّا يؤكّد موقف ابن حطيئة اللخمي المتشدّد ضدّ الفكر الإسماعيلي ما كان منه عام 533هـ/ 1138م عندما عُرض عليه القضاء بمصر –لِما كان له من مكانة عندهم– ورفضه له وبشدة؛ إذ قال: "لا والله لا أقضي لهم"[123]، فبقي منصب القضاء فارغًا مدّة ثلاثة أشهر بعد وفاة القاضي بن أبي عقيل[124]. أمّا المقريزي فأشار إلى أنه اشترط عليهم ألا يحكم بمذهب الدولة[125]، ولكنه لم يتمكّن من ذلك؛ أي أنهم لم يوافقوه على ذلك، وهو الأقرب للصحة[126] بدليل أنّ الوزير رضوان بن ولخشي طلب إلى الفقيه ابن اللبني المغربي المالكي أن يعقد الأنكحة[127]. وفي هذا الموقف دليل آخر على رفضه للفكر الاسماعيلي نظريًّا وعمليًّا بدليل عدم اعترافه بالعمل بمذهبهم للقضاء في الدولة الفاطمية، وفيه أيضًا دليل على دور الواضح في مساهمته في إحياء الفكر السُني من خلال معارضته للفكر الشيعي.

وتكاد مثل هذه الحالة تتكرّر عام 556هـ/ 1152م في مجلس الوزير الملك الصالح[128] المعروف بمغالاته في التشيّع؛ إذ كان إماميًّا، ومخالفًا لمذهب الدولة الفاطمية الإسماعيلي، مُحِبًّا للشعر والأدب، وكثير الإنفاق عليهم[129]، ولكنه كان يقدّم أصحابه في المذهب على غيرهم، يحترمهم ويقرّبهم منه، أمثال الداعي درى الظاهري[130]، الذي كان يحظى بمنزلة عالية عنده؛ لِما كان عليه من براعة في فقه الشيعة، وله مصنّفات في هذا الباب، منها: "معالم الدين على قواعد الرافضة والمعتزلة"، كما كان ينكر القدر، وله مصنّف في الفقه مشهور عندهم[131].

وقد كان من عادة الوزير ابن رزّيك أن يجمع العلماء من الطوائف ويناظرهم على الإمامة؛ لما كان عليه من سَعة وعلم؛ إذ كان مثقفًا وعالمًا بأيام الناس، وبصيرًا بالعلوم الأدبية، وله أشعار كثيرة في آل البيت تدل على تشيّعه وحبّه لهم[132] وحصل في مجلسه يومًا أنّ أحد الأمراء انتقص من السّلف بحضور الفقيه عمارة اليمني، فلما سمع الفقيه عمارة

---

(123) الذهبي، تاريخ، ج11، ص664.

(124) هو القاضي الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبدالرحمن، توفي عام 533هـ/ 1138م. ابن ميسر، المنتقي، ص131.

(125) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص172. أمّا ابن ميسر فأشار إلى أنهم اشترطوا عليه ألّا يحكم إلّا بمذهب الدولة، فلم يتمكّن من ذلك. ابن ميسر، المنتقى، ص131.

(126) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص172.

(127) ابن ميسر، المنتقي، ص131، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص172.

(128) أبو الغارات طلائع بن رزّيك، لقّب بالملك الصالح، أصله من المغرب، كان أرمنيًّا، قدم لمصر، وتدرّج حتى أصبح وزيرًا، كانت وزارته سبع سنين وستة أشهر، وكان فاضلا، سمحًا في العطاء، محبًّا للأدب، محبوبًا للناس لإنكاره الظلم والفساد، لكنه كان من غلاة الإمامية، صنّف كتابًا بعنوان "الاعتماد في الرّد على أهل العناد" يقرّر فيه قواعد الرفض وتعظيم بني عبيد، قتل عام 556هـ/ 1152م بالقاهرة. انظر: الذهبي، تاريخ، ج11، ص624–625، والمقريزي، اتعاظ، مج3، ص246–249. وقد ذكر النويري أنّ ابن رزّيك كان يكره أهل السُنة، ويسبّ الصحابة، رضي الله عنهم، ويغضب ممّن يحاول الانتصار لهم. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/ 1331م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، 32ج، تحقيق نجيب فواز وحكمت فواز، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ج28، ص213، وسيشار له لاحقًا، النويري، نهاية.

(129) المقريزي، اتعاظ، مج3، ص249.

(130) تولّى إمارة الإسكندرية ثمّ دمياط، وكان مقبلاً على الاشتغال وتحصيل العلوم، برع في علوم الشيعة، وكانت له منزلة عالية عند الفاطميين بالإسكندرية، توفي عام 560هـ/ 1164م. الذهبي، تاريخ، ج11، ص683–684.

(131) الذهبي، تاريخ، ج11، ص683.

(132) عمارة، النكت العصرية، ص41، والذهبي، تاريخ، ج11، ص625.

ذلك خرج من المجلس معتذرًا بألم ألمّ به كالعادة، وانقطع عن المجلس ثلاثة أيام، وكان يتعلل لرسول الملك الصالح بمرضه، حتى زاره الملك الصالح بنفسه للاطمئنان عليه، فإذا به معافى دون مرض، فصارح عمارة الملكَ الصالح عن سبب اعتزاله مجلس لكرهه ما جرى فيه بحق السلف، مشترطًا على الملك الصالح لحضور مجلسه النهي عمّا جرى وقيل، وإلّا فأرض الله واسعة والملوك كُثر، فتعجّب الصالح منه وسأله عن اعتقاده بأبي بكر وعمر فقال له: "أعتقد أنه لولاهما لم يكن يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلّا ومحبتهما واجبة عليه،" ثم قرأ عليه قوله تعالى: "ومن يرغب عن ملّة إبراهيمَ إلّا من سَفِهَ نفسه". ويبدو أنّ الكلام لم يعجب الصالح فضحك، وكان هذا من رياضته، فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لا يحتملها مثله، إلّا أنه كان حصيفًا يلقى الفقهاء السُّنّة ويسمع كلامهم[133]. وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ عددًا لا بأس به من علماء السُّنّة على الرغم من قربهم من أصحاب القرار السياسي ومكانتهم منه وتشيعهم إلّا أنهم كانوا يدافعون عن أهل السُّنّة في الوقت الذي تكون بأمسّ الحاجة إلى الدفاع عنها غير آبهين برضى السلطان أو عطاياه أو القرب منه.

كما كان لبعض العلماء دور آخر في التصدي للفكر الإسماعيلي من خلال مؤلفاتهم التي حاولوا من خلالها المحافظة على تراث أهل السُّنّة والعمل على إحيائه دائمًا، وذلك بالوقوف بحزم ضدّ كلّ محاولات الشيعة للإساءة لأهل السُّنّة من صحابة أو غيرهم، أو بتصدّيهم لأيّ فكرة يهدفون إليها تؤدي إلى ذلك، وتمثل هذا على نحوٍ واضح في رفضهم محاولة النيل من الخلفاء الراشدين. فقد صنّف ابن الحبّاب (وقيل الجبّاب) السعدي (ت555هـ/ 1155م)[134] مصنّفًا في هذا الباب تحت اسم "في تسمية الصديق والرّد على من أنكر ذلك"[135]. وهذا يؤكّد تعدّد الوسائل والسُّبل التي نهجها علماء السُّنّة في الحفاظ على هذا الدين وهذا الموروث بتصدّيهم لكلّ محاولات تشويهه أو طمسه.

معارضة علماء السُّنّة لوزراء الدولة الفاطميّة في بعض المسائل الفقهيّة الشرعيّة والدفاع عن قضايا الأُمّة

شهدت الساحة السياسية للدولة الفاطمية في مصر بروز عدد من الفقهاء الذين تصدّوا لرموز الدولة وواضعي سياستها فعارضوها في بعض المسائل التي تهمّ الأُمّة وتدافع عن مصالحها، وكان الإمام والعلامة الفقيه أبو بكر الطرطوشي مثالًا واضحًا على ذلك، وبرزت معارضته مرّتين: الأولى لوالي الإسكندرية جوهر[136] الذي أخرجه من الثغر ومنع الناس من الخروج معه خوفًا من حدوث فتنة، وأغلق الأبواب في وجههم حتى يمنع الناس من اصطحابه، ومع ذلك خرج معه بعض العلماء[137] فوصل القاهرة، وقابل الوزير الملك الأفضل أمير الجيوش، فأحسن استقباله وأكرمه، فلم يكمل متولّي الثغر

(133) عمارة، النكت العصرية ص44- 45، وأبو شامة، الروضتين، ج1، ص346، والمقريزي، اتعاظ، ج3، ص249-250.

(134) أبو القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحبّاب السعدي أخو القاضي الجلّيس، صنّف كتبًا كثيرة، منها: "مساوئ الخمر"، و"الحجة لسلف هذه الأُمّة في تسمية الصديق والرد على من أنكر ذلك "، توفي عام 555هـ/ 1155م بمصر. انظر: المقريزي، اتعاظ، ج3، ص245.

(135) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص245.

(136) كان من الأرمن الموالي. المقريزي، المقفى، ج6، ص448.

(137) أبو طاهر إسماعيل بن مكّي بن عوف، وعطية بن مسلم اللخمي، وحسين بن ياسين الصعيدي، وشبيب العلاف الأزدي، وعبدالله القاضي المالكي.

شهرًا حتى ورد إليه كتاب الوزير الملك الأفضل بعزله عن الولاية[138]، ممّا يدل دلالة واضحة على الشأن والمكانة التي كان يحظى بها عند كبار رجال الدولة، وعند عامّتها أيضًا. ولم يكتف الوزير الملك الأفضل بذلك بل قرّر له عشرة دنانير في كلّ شهر من جوالي النصارى، وأعطاه المحرس المعروف بالشرف[139]. وعند وفاة الوزير الملك الأفضل وتولّي المأمون للوزارة أذن له في الانصراف للإسكندرية وأكرمه إكرامًا كثيرًا يليق به[140]. ولم يكن ذلك إلّا اعترافًا بأهميته ومكانته على الرّغم من معارضته لرموز السلطة السياسية في بعض سياساتها.

ويبدو أن علاقة الفقيه الطرطوشي بقاضي الإسكندرية ابن حديد لم تتّسم بالوُدّ، بدليل الشكاوى التي كان يرفعها ابن حديد للخليفة ضدّه وعنه، وكثيرًا ما كان الطرطوشي يتكلّم بحق القاضي ابن حديد وأُسرته مظهرًا مساوئه وتجاوزاته المتمثلة في ما يفرضه من المُكوس، وما يقترفه من ظلم واضح، حتى كان يصفهم بالقبحن فكان الطرطوشي يفتي بتحريم الجبن الذي يأتي به النصارى من أوروبا ويفتي بقطع محرمات كثيرة، ويبدو أنّ ذلك لم يعجبهم وخالف هواهم وسياستهم فرفعوا ذلك إلى السلطان، فأرسل الوزير الملك الأفضل وراءه، فاجتمع بالوزير الملك الأفضل هناك، فأكرمه وجعل له عشرة دنانير في كلّ شهر يأخذها من جزية اليهود بعد الرغبة إليه في ذلك[141].

أمّا الأمر الآخر الذي يسجل للفقيه الطرطوشي فتمكّنه من إقناع الوزير المأمون بإصدار كتاب يأمر أمناء الحكم بتعويض ما كانوا يأخذونه من أموال الأيتام من ربع العشر، وكذلك توريث البنت الوحيدة نصف الثروة[142]، فقد حضر الطرطوشي لمقابلة المأمون بالقاهرة لهذا السبب بعد أن فاوض الوزير الملك الأفضل من قبله ولم ينجح معه بذلك لرفضه، فبدأ بمفاوضة المأمون، الذي أبدى بداية رفضه لغير ما سار عليه أهل مذهبهم، وما كان يراه الخليفة، ولكنه بإلحاح منه وترغيبه برضى الله غيّرَ رأيه ووافق على ذلك بقوله له: "أرى بشفاعة الفقيه أن أردّ الجميع على رأي الدولة فيرجع كلّ أحد على حكم رأيه في مذهبه في ما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه ولا أمر به الرسول عليه السلام"[143]، فأجاب إلى ذلك ثمّ أمر الوزير أن يكتب به وأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عمّا يقتضونه من ربع العشر بتقرير جار لهم في كلّ شهر من مال الديوان على المواريث الحشريّة[144].

---

(138) المقريزي، المقفى، ج6، ص448. ويذكر ابن فرحون ما كان عليه الفقيه الطرطوشي من معارضة السلطان، ويقصد بذلك ولاة الفاطميين بقولة: "وكان مجانبًا للسلطان، معرضًا عنه، وعن أصحابه، شديدًا عليهم مع مبالغتهم في برّه، وامتحن في دولة العبيديين بالإخراج من الإسكندرية، والتزم الفسطاط ومنع الناس من الأخذ عنه". ابن فرحون، الديباج، ج2، ص245.

(139) المقريزي، المقفى، ج6، ص448.

(140) أضاف إليه عشرين فدّانًا من البهنسي بالصعيد، كانت لأبي شبل المعقلي الزعبي العابد بجيرة الإسكندرية، ثم توفر له أيضًا بعد عوده للإسكندرية خمسة دنانير في كلّ شهر من الخمس الرومي، فسأل القاضي ابن حديد أن يجعلها على الجوالي. المقريزي، المقفى، ج6، ص448.

(141) ابن فرحون، الديباج، ج2، ص247، وانظر ايضا: الشيال، جمال الدين، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الإسكندرية، 1965، ص75–76، وسيشار له لاحقًا، الشيال، أعلام.

(142) انظر تفاصيل الكتاب في: المقريزي، اتعاظ، ج3، ص89–92، والمقريزي، المقفى، ج6، ص444–446.

(143) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص88–89، والمقريزي، المقفى، ج6، ص443–444.

(144) المقريزي، اتعاظ، ج3، ص89، المواريث الحشرية: مال من يموت ولا وارث له بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث، أو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له، ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص92.

كما ذكر ابن المأمون في تاريخه أنّ الوزير رضوان بن ولخشي[145] أفتى بعض الفقهاء في عصره ببطلان الحبس الجيوشي[146] بعد أن قبضت النواحي وصارت من جملة الأموال السلطانية[147]، وهذا يدلّ دلالة واضحة على ما كان للعلماء من دور وعلى حرصهم على حقوق أبناء الأُمّة الإسلامية ومصالحها وعدم هضم حقوقها بأخذ أموالها بالباطل.

الخاتمة

توصّلت هذه الدراسة إلى وجود مساهمات مهمّة لعلماء السُّنّة خلال هذه المدّة في إحياء الفكر السُّني في ظلّ الدولة الفاطمية بمصر بصور مختلفة، سواء من خلال الاهتمام بالعلوم الدينية كالتفسير والفقه والحديث أو بعلوم اللغة أو من خلال إنشاء المدارس أو مقاومة الفكر الإسماعيلي الذي تقوم عليه الدولة، وبرز ذلك في موقف ابن حطيئة اللخمي الذي رفض القضاء بمذهبهم، كما بدا واضحا أن دراسة علماء هذه الحِقبة شكلت امتدادًا للفترة التي تليها، التي توّجت بإسقاط الخلافة الفاطمية، فكانت ثمرة جهودهما. وَخَلُصت الدراسة إلى ما كان عليه علماء السُّنّة من علم ومكانة في الدولة الفاطمية، الأمر الذي أهّلهم لتقديم خدماتهم ومساهماتهم لحل مشكلات الدولة في بعض الأحيان، وخاصّة تلك التي استوجبت دورًا فقهيًّا خدمة للدين والدولة، وكذلك مواقفهم في الدفاع عن مصالح أبناء الأُمّة كمواقف العالم الطرطوشي الذي تصدّى لوالي الإسكندرية بحزم. كما اتّصفت هذه الفترة بالتعاون مع السلطة السياسية باستشارتهم في بعض الفتاوى عند الحاجة إن لزم الأمر، وكان ابن رشا مثالاً عليها. وأثبتت الدراسة بالأمثلة ما تحلّى به علماء هذه الفترة من قدرات مكّنتهم من تفهّم مذهب الدولة والتفاعل معه، ولكنهم في الوقت نفسه عارضوا ما لا يتفق مع مذهب أهل السُّنّة كنقد الصحابة مثلا، مثلما حدث مع الفقيه عمارة اليمني، فلم يكونوا يقدّمون الولاء لوزراء الدولة الشيعة أو غيرهم على حساب دينهم ومذهبهم.

The Role and Contributions of Sunni Scholars in the Fatimid State (468-556 H) / (1075-1160 CE)

Luay Ibrahim Bawanih*

(145) ولي قوص وأخميم أول ما ولي، كان سنيًّا، حسن الاعتقاد، كان أيام الوزير بهرام النصراني واليًا على الغربية فاستنجد به المصريون لاستقدام النصارى، ثم أخذ الوزارة منه، ولقّب بالوزير الملك الأفضل، قتل عام 542هـ/ 1147م. ابن ميسر، المنتقي، ص124، 138.

(146) يطلق على البلاد التي من الضواحي من غربي الخليج، وهي: يهتيت والأميرية والمنية، وتُعرف بالحبس الشرقي، وكذلك ناحية سفط ونهيا ووسيم بالجيزة، وتُعرف بالحبس الغربي، وقد حبسها أمير الجيوش بدر الجمالي على عقبه. انظر: ابن المأمون، السيرة المأمونية، ص141.

(147) ابن المأمون، السيرة المأمونية، ص142.

ABSTRACT

This study examines the role of Sunni scholars within Egyptian society during the Fatimid period. This study covers the period from 468 H / 1075 CE, when Badr al-Jamali became vizier, up to 556 H / 1160 CE, the end of Tala'i' Ibn Ruzzayk's time as vizier. Badr al-Jamali restricted Sunni scholars of Islamic law, literature, grammar and other fields, while Ibn Ruzzayk exemplified a model of open-mindedness towards them, so their role flourished in his time. The article addresses the relations of the Sunni scholars with the Fatimid state and their varied areas of involvement in affairs of state.

Keywords: Fatimid Egypt, Fatimid state, Sunni scholars, Badr al-Jamali.

* Amman University College for Financial and Administrative Sciences, Al-Balqa' Applied University, Jordan. Received on 9/5/2018 and accepted for publication on 25/8/2019.

REFERENCES

Abu Shamah, Shihab al-Din ‘Abd al-Rahman Ibn Isma‘il (d665H/1266CE).(2002); *Kitab al-Rawdatayn fi Akhbar al-Dawlatayn al-Nuriyyah wa al-Salahiyyah, 4v,* edited by: Ibrahim Shams al-Din, The Scientific Books House, Beirut.

Abu Shamah, Shihab al-Din Abd al-Rahman Ibn Ismail (d665H/1266CE). (2002); *Taradjim Rijal al-Karnayn al-Sadis wa al-Sabi al-Ma‘rouf bi al-Dayl ‘ala al-Rawdatayn,* edited by: Ibrahim Shams al-Din, The Scientific Books House, Beirut.

Ansari, A. S. (1979); *Diwan, Encyclopaedia of Islam,* New Edition, Leiden-London.

al-Asfahani, Imad al-Din Abu Hamid Muhammad Ibn Muhammad (d597H/1201CE); *Al-Bustan Al-Djami Lidjami Tawarikh Ahl Al-Zaman,* Verification Of Umar Tadmuri, ed1, The Modern Library.

Badawi, Abd Al-Madjid Abu Al-Futuh; *The Political and Intellectual History for the Sunni Faith in the Islamic East from the 5th Hijri Century until Fall of Baghdad,* ed2, Faithfulness for the Printing, Publishing and Distribution House, Cairo- al-Mansourah.

al-Bawa‘neh, Lo’ay. (2007); *Role of The Muslim Scientists in Resistance of the Frank (Crusader) Invasion to the Islamic East (490-648H/1097-1250CE),* al-Yazouri House, Amman.

Canard, M. (1979); *Fatimids, Encyclopaedia of Islam,* New Edition: Leiden-London.

Crone, P. (1979); Mauna, *Encyclopaedia of Islam,* New Edition: Leiden-London.

Dajāni, Hadiyah; *al-Qadi al-Fadīl ‘Abd al-Rahīm al-Baysani al-‘Asqalani (526-596H/1131-1199CE),* (ed2), Beirut: Foundation of the Palestinian Studies.

al-Dhahabī, Shams al-Dīn Muhammad Ibn Ahmad Ibn ‘Uthman (d748H/1347CE). (2005CE); *Tarikh al-Islam wa wafayat al-Mashahīr wa al-‘Alam, 15v,* edited by: Mustafa ‘Abd al-Qadir ‘Ata, The Scientific Books House, Beirut.

Ibn al-Athir, Abu al-Hasan ‘Ali Ibn ‘Abi al-Karam Muhammad Ibn Abd al-Karim al-Shaybani (d630H/1232CE). (1966); *Al-Kamil fī al-Tarīkh, 12v,* Dar Sadir, Beirut.

Ibn al-Jawzi, Shams al-Din Abu al-Muẓaffar Ibn Kazawghli al-Turkī (d654H/1256CE). (1951); *Mirat al-Zaman fi Tarikh al-A‘yan, 8v,* Council of Department of the Uthmani Knowledges Press, (ed1), Haydar Abad Al-Dikin, India.

Ibn al-Ma’moun, Jamal al-Mulk Mousa Ibn al-Ma’moun Ibn al-Bataihi (d588H/1192CE). (2014); *al-Sirah al-Mamuniyyah aw Akhbar Misr 501-519H,* edited by: Ayman Fuad al-Sayyid, The Books House & The Center of Verification of Heritage, Egypt.

Ibn al-Tuwayr, Abu Muhammad al-Murtada ‘Abd al-Salam Ibn al-Hasan al-Kaysarani (d617H/1220CE). (1992); *Nuzhat al-Muklatayn fi Akhbar al-Dawlatayn,* edited by: Ayman Fu’ad Sayyid, Frants Shtaynar Shtutghart House.

Ibn ‘Asakir, Abu al-Kasim ‘Ali Ibn al-Hasan (d571H/1175CE); *Tarikh Madinat Dimashq wa dhikr Fadliha wa tasmiyat man Hallaha min al-Amathil aw Ijtaza Binawahiha min Wāridīha wa ahliha, 80v,* edited by: Muheeb al-Dīn Abu Sa‘id ‘Omar Ibn Azamah al-Amruri, The House of Intellect of Printing and Publishing: Damascus.

Ibn Farhoun, Ibrahim Ibn Nour al-Din al-Malikī (d799H/1396CE); *Al-Dibaj al-Mudhahhab fī Ma‘rifat A‘yan al-Madhhab, 2v,* edited by: Muhammad al-Ahmadi Abu al-Nour, Heritage House for Printing and Publishing, Cairo.

Ibn Hajar al-Asqalani, Shihab al-Dīn Ahmad Ibn ‘Ali (d852H/1448CE). (1980); *Raf‘ al-Isr ‘an Qudat Misr, 2v,* edited by: ‘Ali Muhammad ‘Omar, Library of al-Khandji, Cairo.

Ibn Hazm, Abu Muhammad ‘Ali Ibn Ahmad al-Andalusi al-Zahirī (d456H). (1420H/1999CE); *Al-Fasl fi al-Milal wa al-Ahwā’ wa al-Nihal*, edited by: Ahmad Shams al-Din, The Scientific Books House, Beirut.

Ibn Kathīr, Abu al-Fidā’ Isma‘il Ibn ‘Umar al-Dimashqi (d774H/1372CE). (1966); *Al-Bidāyah wa al-Nihāyah*, 14 vols, The Library of Knowledges, Beirut.

Ibn Khallikān, Abu al-‘Abbas Shams al-Dīn Ahmad Ibn Muhammad Ibn Abi Bakr (d681H/1282CE). (1997); *Wafayat al-A‘yan wa anbā’ Abnā’ al-Zamān, 4v*, Introduced by: Muhammad al-Mar‘ashli, Indexes by: Riyad ‘Abd al-Hādi, The *House of Restoration of the Arabic Heritage*, & Foundation of the Arabic History, Beirut.

Ibn Muyassar, Tāj al-Dīn Muhammad Ibn ‘Ali Ibn Yousuf Ibn Jalab Raghib (d677H/1278CE). (1981); *Al-Muntaqa min Akhbār Misr*, editdd by: Ayman Fu’ad Sayyid, *The Scientific French Institute for the Eastern Ancient Monuments*, Cairo.

Ibn Taghri Bardi, Jamal al-Dīn Abu al-Mahasin Yousuf (d874H/1470CE); *Al-Nujoum al-Zāhirah fī Mulouk Misr wa al-Qāhirah, 10v*, The Ministry of Culture, Egypt.

Ibn Zāfir, Jamal al-Din Abu al-Hasan ‘Ali Ibn Mansour Zāfir Ibn Hussein al-Azdi (d613H/1216CE). (1999); *Akhbar al-Duwal al-Munqati‘ah*, edited by: ‘Isam Hazaymah and others, Hamādah Foundation & al-Kindi House, Irbid.

al-Kifti, Abu al-Hasan ‘Ali Ibn Yousuf (d646H/1248CE). (2009); *Inbah al-Ruwah ‘ala Anbah al-Nuhah, 4v*, edited by: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, The Modern Library: Sayda-Beirut.

al-Manawi, M.H. *The Ministry and the Ministers in the Fatimi Age*, House Of Knowledges, Cairo.

al-Maqrīzi, Taqiy al-Din Ahmad Ibn ‘Ali (d845H/1441CE). (1973*); Itiaz al-Hunafa’ bi akhbār al-A’immah al-Fatimiyyin al-Khulafā’, edited by: Muhammad Hilmi Muhammad, 3v*, The Highest Council for the Islamic Matters, Committee of Restoration of the Islamic Heritage: Cairo.

al-Maqrīzi, Taqiy al-Din Ahmad Ibn ‘Ali (d845H/1441CE). (1998); *Al-Mawa‘iz wa al-I‘tibār bi dhikr al-Khutat wa al-Athar al-Ma‘rouf bi al-Khutat al-Makriziyyah, 4v*, edited by: Khalil al-Mansour, (ed1), Leaflets of Muhammad ‘Ali Baydun, The Scientific Books House, Beirut.

al-Maqīzi, Taqiy al-Din Ahmad Ibn ‘Ali (d845H/1441CE). (2010); *Tarikh al-Makrīzi al-Kabīr al-Musamma al-Muqaffa al-Kabir, 6v*, edited by: Muhammad Uthman, (ed1), The Scientific Books House, Beirut.

al-Nuwayri, Shihab al-Din Ahmad Ibn ‘Abd al-Wahāb (d733H/1331CE). (2004); *Nihayat al-Arab fi Funoun al-Adab, 32v*, edited by: Najib Fawwaz and Hikmat Fawwaz, (ed1), Leaflets of Muhammad ‘Ali Baydoun, The Scientific Books House: Beirut.

al-Qadi, Khalid Ibn ‘Abd al-Rahman. (2008); *The Scientific Life in The Fatimi Egypt*, (ed1), Beirut.

al-Safadi, Salah al-Din Khalil Ibn Aybak (d764H/1363CE). (2010*); Al-Wāfi bi al-Wafayāt, 24v*, edited by: Abu ‘Abd Allah Jalal al-Asyouti, (ed1), The Scientific Books House: Beirut.

al-Sayrafi, Amīn al-Din Taj al-Riyasah Abu al-Qasim ‘Ali Ibn Munjib (d after 550H/1155CE). (1933); *Al-Isharah ilā man nāla al-Wizārah*, editedby: ‘Abd Allah Mukhlis, The Scientific French Institute: Cairo.

al-Shahristani, Abu al-Fath Muhammad Ibn ‘Abd al-Karīm (d548H). (1432H/2011CE); *Al-Milal wa al-Nihal*, edited by Kisra Salih al-Ali, Foundation af The Mission publishers: Damascus, Syria, Beirut, Lebanon, ed1.

al-Shayyal, Jamal al-Din. (1957); First Professor for First School in the Islamic Al-Iskandariyah, *Journal of Faculty of the Arts*, University of Al-Iskandariyyah.

al-Shayyal, Jamal al-Din. (1965); *Distinguished Personalities of al-Iskandariyah in the Islamic Age*, The Public Body for Palaces of Culture, Al-Iskandariyyah.

Sayyid, A.F. (2007); *The Fatimi State in Egypt*, New Explanation, The Egyptian Public Body For Book: Egypt.

Sulayman A & Al-Bataihi, M. (2001); Minister for the Fatimi Caliph al-Amir Biahkam Allah, (515-519H/1122-1125CE), *Researches and Studies in the Arabic History Presented To Memory of Mustafa al-Hiyarī 1936-1998*, Edited by: Salih al-Hamarneh, Leaflets of the Jordanian University: Amman.

al-Yamani, Najm al-Din Abu Muhammad ‘Umārah Abu al-Hasan al-Hakami (d569H/1174CE). (1897CE); *Al-Nukat al-‘Asriyyah fi Akhbar al-Wizārah al-Misriyyah*, edited by: Hartwigh Daranbargh, City of Shalun of Marsu Presses.

Yaqout al-Hamawi, Shihab al-Din Abu ‘Abd Allah Ya‘qout Ibn ‘Abd Allah al-Hamawi al-Roumi (d626H/1228CE***);*** *Mu‘jam al-Udabā’, 20v*, The Restoration of the Arabic Heritage House, Beirut.